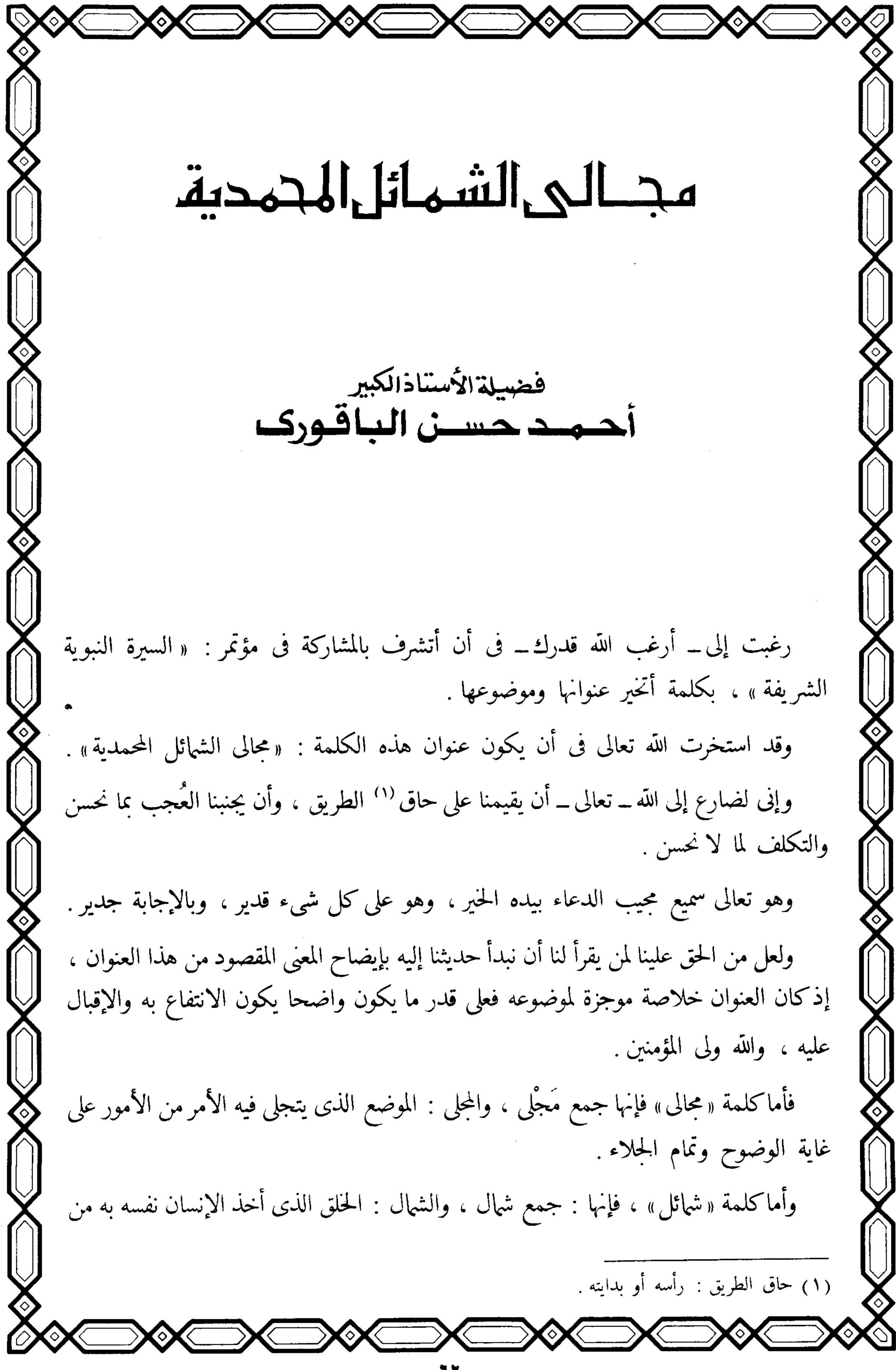


مجالى الشمائل المحمدية

فضيلة الأستاذ الكبير
أحمد حسن الباقورى

رغبت إلى ـ أرغب الله قدرك ـ فى أن أتشرف بالمشاركة فى مؤتمر : « السيرة النبوية الشريفة » ، بكلمة أتخير عنوانها وموضوعها .

وقد استخرت الله تعالى فى أن يكون عنوان هذه الكلمة : « مجالى الشمائل المحمدية » .

وإنى لضارع إلى الله ـ تعالى ـ أن يقيمنا على حاق[1] الطريق ، وأن يجنبنا العُجب بما نحسن والتكلف لما لا نحسن .

وهو تعالى سميع مجيب الدعاء بيده الخير ، وهو على كل شىء قدير ، وبالإجابة جدير .

ولعل من الحق علينا لمن يقرأ لنا أن نبدأ حديثنا إليه بإيضاح المعنى المقصود من هذا العنوان ، إذ كان العنوان خلاصة موجزة لموضوعه فعلى قدر ما يكون واضحا يكون الانتفاع به والإقبال عليه ، والله ولى المؤمنين .

فأما كلمة « مجالى » فإنها جمع مَجْلى ، والمجلى : الموضع الذى يتجلى فيه الأمر من الأمور على غاية الوضوح وتمام الجلاء .

وأما كلمة « شمائل » ، فإنها : جمع شمال ، والشمال : الخلق الذى أخذ الإنسان نفسه به من

(١) حاق الطريق : رأسه أو بدايته .

شرف الأدب حتى صار كالخلقة فيه ، فإن كان شرف الأدب فى المرء خليقة له وطبعا فيه ، فإنهم يضعون له كلمة تدل عليه وتختص به ، وهى كلمة : «خيم» على مثال الكلمة : «جيم» .

وقد اجتمع لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الأمران جميعا من شرف الفطرة ، وشرف التخلق بأخلاق القرآن .

وغير خفى على أهل العلم أن كتب «الشمائل المحمدية» ، جمع فيها مؤلفوها بين الأوصاف الظاهرة والأوصاف الباطنة التى كانت لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على نحو ما صنع الإمام أبو عيسى الترمذى الذى كتب عن شمائله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجمع فى نظم الشمائل بين ما يتعلق ـ بخَلْقه الشريف ، وخلقه العظيم .

غير أن الذى تنصره لغة العرب ويؤيده عرف الكاتبين من أهل الفضل ، هو أن الشمائل ترجع إلى الأوصاف الباطنة على ما يقول أهل اللغة :

إن الشمائل هى : الطباع والأخلاق ، وشاهدهم على ذلك قول الشاعر :

ألم تعلما أن الملامة نفعها   قليل وما لومى أخى من شماليا

وكذلك قول صخر بن عمرو الشريد أخى الخنساء :

أبى الشتم لى أنى أصابو كريمتى   وأن ليس إهداء الخنى من شماليا

وعلى مثل ذلك قول لبيد بن ربيعة العامرى ـ رضى الله عنه ـ :

هم قومى وقد أنكرت منهم   شمائل بدلوها من شمالى

ويقول الإمام ابن منظور : فلان رجل كريم الشمائل أى : فى أخلاقه ومخالطته .

ومن ذلك قول الشاعر :

لقد زادنى حبا لنفسى أننى   بغيض إلى كل امرء غير طائل
إذا ما رآنى قطع الطرف بينه   وبينى فعل العارف المتجاهل
ملأت عليه الأرض حتى كأنها   من الضيق فى عينيه كفة حابل
وإنى شقى باللئام ولا ترى   شقيا بهم إلا كريم الشمائل

فكلمة الشمائل فى هذه الأبيات من الشعر العربى الأصيل تعنى : الخلائق والأخلاق .

وربما قالت العرب : فلان مشمول الخلائق ، يعنون : أنه كريم الأخلاق ، وهم يأخذون ذلك من الماء الذى ضربته ريح الشمال فبرد وصفا وطاب لشاربيه .

ومن ذلك قولهم :

ولتعرفن خلائقا مشمولة ولتندمن ولات ساعة مندم

هذا ، وإذ قد استبان المعنى المراد من الكلمتين : « مجالى » ، « وشمائل » .

فاعلم ـ علمك الله الخير ـ أن شمائل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تتجلى لرائديها :

فى القرآن الكريم ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ثم فى السنة المطهرة ، التى تؤيدها التجربة المصدوقة .

ثم فى السيرة العطرة ، التى تدونها الأقلام الموثوقة .

ثم فى الشعر العربى الذى تلقاه الأخلاف عن الأسلاف ، أو نهجوا نهجهم فيه .

فأما القرآن الكريم : فقول الله ـ جل ثناؤه ـ : «**ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم**» .

ففى هذه الآية قسم من الله تعالى « بالقلم » تشريفا لشأنه من حيث كان أحد لسانى الإنسان الذى علمه ربه البيان .

وليس يجهل أهل العلم ، أن الخلق العظيم ، له صورتان :

إحداهما : أن يكون الخلق طبيعة فى المرء وسمة له ، وهى التى يسميها أهل اللغة : الخيم ـ بكسر الخاء ـ على ما يقول شاعرهم :

ومن يبتدع ما ليس من خيم نفسه يدعه ويغلبه على النفس خيمها

وهذا اللون من الخلق هو الخلق العظيم ، ولعله هو المراد فى الآية الشريفة من سورة « القلم » .

وثانية الصورتين : أن يكون الخلق نتيجة التخلق ، ومجاهدة المرء نفسه لكى يحملها على اعتناق معالى الأمور وتجنب سفسافها ، وغير مجهول أن التخلق غير الخلق من حيث كان الخلق ثابتا لا يتبدل ، وكان التخلق قابلا للتغيير والتبديل على ما يقول الشاعر :

يا أيها المتحلى غير شيمته ومن طبيعته التبديل والملق
إرجع إلى خيمك المعروف ديدنه إن التخلق يأتى دونه الخلق

وقد وصف الله تعالى نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالخلق العظيم الذى يرجع إلى الخيم

والطبيعة والفطرة فهو لا يتخلف عن الموصوف به فى قول ولا فى تصور ، ولا فى سلوك . فذلك قول الله – جل ثناؤه – :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » .

يقول – جل ثناؤه – : لقد جاءكم رسول من جنسكم من البشر ثم من بنى إسماعيل ثم من العرب الذين هم أبناء إسماعيل ، فليس فى العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبى وفيها له نسب وقد مَنَّ الله عليكم أيها العرب بأن محمدا منكم ، لأنكم إذا عرفتم مولده ومنشأه وشاهدتموه صغيرا وكبيرا ، كان أقرب إلى القبول منكم وكنتم أحرى بالانقياد له مع أنه شديد عليه عنتكم ، وما يلحقكم من الضرر بترككم الإيمان به ، إذ كان حريصا عليكم وكان بالمؤمنين منكم رءوفا رحيما .

ومن ذلك أيضا قوله – جل ثناؤه – : « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك .... الآية » .

فى هذه الأية بيان من الله – سبحانه وتعالى – بأن مساهلة النبى إياهم ومجاوزته عنهم ، هى من رحمة الله تعالى بهم حيث جعل نبيه – صلى الله عليه وسلم – لين الجانب حسن الخُلق ، إذ لو كان فظا جافيا سيىء الخُلق لانفض الناس من حوله ونفروا منه ، فكان فى ذلك خسارهم فى الدنيا والآخرة .

وليس يغيب عنك أن النبى – صلى الله عليه وسلم – بهذه الأخلاق الشريفة – كان مِنَّة من الله تعالى على عباده على ما تقرر ذلك الآية الشريفة من « سورة آل عمران » :

« لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » .

فى هذه الآية بيان من الله تعالى بأنه أنعم على المؤمنين نعمة عظيمة من غير أن يسألوه إياها فكانت بعثته – صلوات الله عليه – كالرزق غير المحتسب ، وكالعسل الحلو الذى ينزل من السماء يستلذه الناس من غير أن يبذلوا فى الحصول عليه جهدا ولا يتجشموا مشقة .

وقد جعل الله تعالى نبيه محمدا رحمة لهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط مستقيم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة التى : هى السنة ، وقد كانوا من قبل بعثه إليهم فى ضلال مبين . فبعثه – سبحانه – إليهم فعلمهم وليس لهم علم ، وأدبهم وليس لهم أدب . فكانت النعمة به – صلى الله عليه وسلم – نعمة سابغة تستحق الشكر وتتأبى على الجحود .

هذا ، وأما السنة المطهرة ، فقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما روى ابن عباس :

«ما ولدنى من سفاح الجاهلية شيء . إنما ولدنى نكاح كنكاح الإسلام» .

ولكى يتضح معنى الحديث ويستبين فيه وجه شمائله الشريفة ، لا نرى منتدحا عن وقفتين :

إحداهما : حول طهارة نسبه من أدران الجاهلية .

وثانيتهما : حول صلة نسبه الطهور بشرف شمائله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

فأما الوقفة الأولى ، فجملة القول فيها : أن نسب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، لم يقع فيه ما يعيبه بما كان يواقعه أهل الجاهلية من نكاح « المقت » وهو : أن يخلف الابن الأكبر أباه على زوجته من بعده ما دامت ليست أما له .

فكذلك سلم نسبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

من هذا اللون القبيح من النكاح الذى اجتمعت فيه مراتب القبح الثلاث :

القبح فى العقول ، مشارا إليه بالكلمة «إنه كان فاحشة» .

والقبح فى الشرائع ، مشارا إليه بالكلمة «مقت» .

والقبح فى العرف ، مشارا إليه بالكلمة «ساء سبيلا» . ومتى اجتمعت فى النكاح هذه الوجوه فقد بلغ من القبح غاية لا غاية وراءها .

هذا ما قرره أهل العلم فى هذه القضية ، وهم يريدون بذلك نفى هذا النكاح المقيت عن النسب الطهور .

غير أن الحافظ قطب الدين خشى أن يكون قد أصاب النسب الشريف نكاح « المقت » . وقد ركبت به هذه الخشية الأهوال ليله ونهاره .

ذلك أن نسب رسول الله ، فى الصميم من قريش ، وقريش هو : النضر بن كنانة بن خزيمة ، وقد كان النضر هذا ثمرة نكاح « مقت » إذ كان أبوه كنانة قد تزوج برة بنت أدبن طابخة التى كانت زوجة لأبيه .

يقول قطب الدين عبد الكريم : «إننى حين جالت برأسى هذه الخاطرة ، أقمت مفكرا أمدا طويلا لكون برة المذكورة كانت زوجة لخزيمة ، فخلف عليها ابنه كنانة فجاء له منها النضر بن كنانة وقد وقع هذا فى نسب النبى ، فيكون مناقضا للحديث الذى يقول فيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «مازلت أخرج من نكاح كنكاح الإسلام حتى خرجت من بين أبى وأمى» .

فكيف يمكن التوفيق بين ما جاء فى الحديث الشريف ، وبين ما يعرفه علماء النسب مما يدخل بنسبه فى نكاح « المقت » ؟ .

يقول الحافظ : ومازلت فى أشد الحيرة حتى وقع فى يدى كتاب « الأصنام » الذى ألفه أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فإذا هو يقول فيه :

لقد خلف كنانة بن خزيمة على زوجة أبيه بعد وفاته التى هى برة بنت أدبن طابخة ، ولكنها لم تلد لكنانة ولدا لا ذكرا ولا أنثى ، وإنما كانت ابنة أخيها برة بنت مر بن أد زوجة لكنانة بن خزيمة فولدت له النضر بن كنانة الذى هو قريش .

وإنما غلط كثير من الناس لما سمعوا أن كنانة خلف على زوجة أبيه برة فذهب وهمهم إلى أن كنانة تزوج برة بنت أد بن طابخة على حين أنه كان قد تزوج بنت أخيها لاتفاق اسمهما وتقارب نسبهما ، وهذا هو ما عليه أهل العلم وأهل النسب .

يقول لجاحظ بعد أن قرر هذه الحقيقة : ـ ومعاذ الله ـ أن يكون قد أصاب نسب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، نكاح « مقت » وقد قال ـ صلوات الله عليه ـ : « مازلت أخرج من نكاح كنكاح الإسلام حتى خرجت من بين أبى وأمى » .

ومن اعتقد غير هذا فقد كفر بما نسب إلى رسول الله أنه ثمرة نكاح « مقت » .

والحمد لله الذى نزهه عن كل وصم وطهره تطهيرا .

هذا ، وأما الوقفة الثانية : فإنها تقوم على أن الرجل كلما كان سليل أنساب عريقة وربيب أحساب شريفة ، كان أقرب إلى الأخذ بمعالى الأمور وتجنب سفسافها .

وليس من شك فى أن زوجة الأب تنزل من الإنسان بمنزلة الأم ، فنكاحها يعاند الفطرة الإنسانية السوية ، ويصادم الوجدان الصحيح ، ولذلك نظن أن نكاح الولد زوجة أبيه لم يكن فى ذوى الأحساب وشرفاء القوم من عرب الجاهلية ، وإذا كان ذلك صحيحا ـ وهو صحيح ـ فقد سلم لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نسب شريف لم يخالطه من دنس الجاهلية ما يشوه شرف الأنساب .

وباستصحاب هذه الكلمات مسلمة الثبوت عند ذوى العقول ، يكون ذوو الأحساب الشريفة أبعد الناس عن الدنايا والمجاهرة بالرذائل الاجتماعية .

ويكون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحق بقول الشاعر العربى :

لعمرك ما أهويت كفى لريبة ولا حملتنى نحو فاحشة رجلى
ولا قادنى سمعى ولا بصرى لها ولا دلنى رأيى عليها ولا عقلى
ولست بماشى ما حييت لمنكر من الأمر لا يمشى إلى مثله مثلى

ولما كان الفضل يدعو إلى الفضل ، والشرف يهتف بالشرف ، كان شرف الحسب فى الرجل محورا تدور عليه كل الفضائل الاجتماعية من : الأمانة والعفة وإيثار مكارم الأخلاق ، يتخذها المرء أصلا يقيم عليه حياته ، ويقيس إليه اختلاطه بالناس ، فإما اتخذهم أصدقاء يألفهم ويألفونه وإما اتخذهم أعداء يتجنبهم ويتجنبونه .

وليس يستعصى عليك ـ حفظك الله ـ أن تلتمس فى أقوال الذين يوثق بهم ـ دينا ومعرفة وتجربة ـ ما يؤيد هذه القضية القائمة على أن الأحساب الشريفة تصون ذويها عن الدنايا وتنأى بهم عن صغائر الأمور ، وشاهد ذلك ما يرويه الثقات من أن أمير المؤمنين عمر كان يحاسب عماله على ما اكتسبوه من ثروات ، ظانا أنهم إنما اكتسبوها باستغلال نفوذهم وسلطان مناصبهم . على نحو ما صنع مع والى مصر ـ عمرو بن العاص ـ ، فأجابه عمرو ـ رحمه الله ـ بكتاب يقول فيه : « إننى لم أطرق لك على هذه الولاية بابا . ولم أفتح لك عليها قفلا ، ووالله لو كانت خيانتك حلالا ما خنتك ، فإن لنا أحسابا تمنعنا أن نخون » .

وعلى مثل ذلك جاء الخبر عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز فقد سأل أهل ثقته أن يدلوه على جماعة من القراء يوليهم أمر الأمة .

فقال له عالم ثقة : إن القراء ـ يا أمير المؤمنين ـ ضربان : ضرب يعمل لله فلا يعمل لك . وضرب يعمل للدنيا فإذا مكنته منها . لم يكن عاملك الذى تريد . ولكن عليك بأهل الأحساب الذين يستحيون لأحسابهم ، فاسند أمور الرعية إليهم .

وليس مما يستبعده أهل العلم ، أن تكون أم المؤمنين خديجة قد استصحبت هذه المعانى الشريفة وهى تطمئن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين قال لها بعد أن أوحى إليه : « لقد خشيت على نفسى يا خديجة » فأجابته قائلة له : « كلا والله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق » . وهى تريد بذلك ـ رضى الله عنها ـ ، أن الذى يصنع هذه الفضائل الشريفة لابد أن يكون مكينا فى شرف الأحساب والأنساب ، ومن ثم لا يقارف دَنِيَّة ولا يواقع رذيلة لأنه لو فعل هذا لسقط اعتباره فى

المجتمع وفقد منزلته الشريفة التى رفعه إليها كرم حسبه وعظم نسبه . وتلك قضية مسلمة فى بداهة العقول .

هذا ، وأما السيرة العطرة : فمبلغ علمى أن ها هنا أمرا يطلب موضعه فى صدد الحديث عن السيرة ، معينا لطلاب المعرفة على تحصيل ما ينتفع به فى هذا المجال الشريف . وذلك الأمر هو ما ذكره شيخ الإسلام ابن القيم حيث قال فى كتابه «الروح» : وإنى مخبرك بأمر إذا تأملت أحوال الأنفس والأبدان ، شاهدته مشاهدة عيان .

ذلك أنك قلّ أن ترى آفة فى بدن إلا وفى روح صاحبه آفة تناسبها . ولهذا يأخذ أصحاب الفراسة أحوال النفوس من أشكال الأبدان وأحوالها وقلما يخطئون فى ذلك .

وقد حكى عن الشافعى فى ذلك عجائب . ثم إنك قلّ أن ترى شكلا حسنا وصورة جميلة فى تركيب لطيف ، إلا وجدت الروح المتعلقة به مناسبة له ، وهذا إذا لم يعارضه ما يوجب خلافه من تعلم وتدرب واعتياد .

كذلك قال الإمام ابن القيم ـ رضى الله عنه ـ . وكذلك يقول الثقات : إن ارتباط الشكل الظاهر بالروح الباطن ، هو الذى دعا الذين كتبوا عن الشمائل إلى أن يجمعوا فى حديثهم عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين أوصافه الظاهرة وأوصافه الباطنة يشيرون بذلك إلى هذا المعنى الذى ذكره الإمام ابن القيم . ولذلك يكون من الحق الذى لا محيص عنه أن يجمع «كتاب الشمائل» بين صفاته الحسية الظاهرة وبين صفاته المعنوية الباطنة . فإذ قد كانت صفاته الحسية الظاهرة على غاية الكمال ، فكذلك تكون صفاته المعنوية الباطنة على غاية الكمال أيضا سواء فى ذلك ما يتصل بأخلاقه الفطرية ، وما يتصل بأخلاقه المكتسبة .

وبتمثل هذا المعنى ، لا ترى مندوحة عن التسليم بما ذكره الإمام الحافظ جلال الدين السيوطى فى كتابه «الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير» وذلك حيث قال ـ رحمه الله ـ : إن الفعل «كان» إذا ذكر فى معرض الوصف لرسول الله فإنه يدل على شمائله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مهما كان متعلق هذا الفعل صفة ظاهرة أو معنى باطنا .

وعلى هذه السنة مضى كتاب السيرة النبوية المطهرة فذكروا صفة خلقه الشريف مقترنة بصفة خُلُقه العظيم . ولعلهم يستصحبون فى ذلك الصنيع هذا المعنى الذى ذكره شيخ الإسلام ابن القيم .

ولهذا كان من الحق علينا لك ـ حفظك الله ـ أن نمضى على السنة نفسها التى مضى عليها

الأسلاف الصالحون وقررها الإمام الحافظ السيوطى ـ رضى الله عن الجميع ، وأرضاهم ورضى عنا بهم أجمعين ـ .

ولعلك لا تعقل غير معقول إذا قلت : إن الأخذ بهذا الذى قرره ابن القيم يشتمل على منفعة عظيمة يحرص على الظفر بها الذين يؤثرون التعرف على خيار الناس وفضلائهم من أيسر وأقصر وأوثق طريق ، فإذا أردت أن تصاهر رجلا أو تشاركه فى حرفة أو تزامله فى مجال من مجالات الحياة الكريمة ، فليس عليك إلا أن تنظر اليه فإن وجدت صورته الظاهرة سالمة من الآفات خالية من المعايب ، فلا تتردد فى أن تتخذ منه صديقا يسعدك بصحبته ، ويشرفك بمزاملته ، ويكون دليل خير للناس عليك ، على ما يقول الشاعر العربى الأصيل :

عن المرء لا تسأل ، وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدى

وباستصحاب هذه المعانى ـ على ما ينبغى لها من حسن التدبر ـ تستطيع أن تفقه المعنى الذى قصد إليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فى إيثاره الاسم الحسن والوجه الحسن كما يشير إلى ذلك ، الحديث الذى رواه « فى التيسير » ، وأخرجه مالك عن يحيى بن سعيد أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال ذات يوم وقد جلس إليه أصحابه فأراد أن يشرب معهم لبنا من ناقة حلوب فقال ـ مشيرا إلى لقحة بين يديه : ـ « من يحلب هذه » ؟ . فقام رجل فسأله النبى عن اسمه فقال : « مرة » ، فأمره بالجلوس ، ثم قام آخر ، فقال : اسمى « يعيش » ، فقال له ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أحلب أنت » . فشرب رسول الله ، وسقى من معه من أصحابه ، ثم قال : « إذا أبردتم إلى بريدا ، فابعثوه حسن الوجه حسن الاسم » .

وليس يخفى عليك ـ حفظك الله ـ أن الإنسان حسن الخِلقة سوى التركيب هو ـ فيما ذكر الإمام ابن القيم ـ ذو خُلق رضى سليم من العيوب والآفات .

فهذا هو المعنى الذى أراده رسول الله من وصاته أصحابه أن يختاروا فى الإبراد اليه صاحب الوجه الحسن ، والاسم الحسن ، وهو يريد بذلك ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يبغّض للمؤمنين ماكان يؤثره أهل الجاهلية من الأسماء القبيحة على ما يقول أعرابى سئل لماذا تسمون أبناءكم بالأسماء القبيحة وتسمون عبيدكم بالأسماء الحسنة ؟

فقال الأعرابى : إنما نسمى أبناءنا لأعدائنا ونسمى عبيدنا لنا ، نقول : اذهب ياكلب ، اذهب يا أسد ، تعال يا بلال ، تعال يارباح .

* * *

ولست تحتاج إلى من يذكرك بأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد ظفر من فضل الله تعالى عليه بالحسن فى اسمه الكريم ، وبالحسن فى صورته الشريفة ، وبالحسن فى خلقه العظيم .

فأما الحسن فى اسمه الكريم ، فإليه الإشارة بقول الله تعالى : « **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل** » . والمحمد على مثال المعظم هو الذى يحمده الناس حمدا بعد حمد . وكذلك قوله تعالى على لسان المسيح ـ عليه السلام ـ :

« **واذ قال عيسى ابن مريم يابنى اسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد** » .

والأحمد هو : أكثر الناس حمدا لله فلما كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أكثر الناس حمدا لله جعله الله محمدا على ألسنة الناس ، يحمدونه حمدا بعد حمد ، فهذا هو وجه الحسن فى تسميته ـ صلوات الله عليه ـ بمحمد ، وبأحمد فى القرآن الكريم .

وأما الحسن فى صورته الشريفة فإليه الإشارة بما ذكر أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ حيث قال : « ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كأن الشمس تجرى فى وجهه ، ولا رأيت أحدا أسرع فى مشيته منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كأنما الأرض تطوى له » .

وكان ـ كما روى الإمام الترمذى ـ أزهر اللون ، إذا مشى مال إلى سنن المشى ، وهو : ما بين يديه ، مشية أهل العزم والهمة ، وليس كما يمشى الجمل الأهوج .

هذا ، وقد وصفته أم معبد وصفا ذكره العلامة عبد القادر المغربى ـ عضو مجمع اللغة العربية ـ الأسبق ، فذلك حيث قال ـ رضى الله عنه ـ : لقد ثوى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى قريش ، بضع عشرة حجة يذكرهم ويدعوهم إلى الاسلام ، وهم لا يزدادون إلا عتوا واستكبارا فرأى أخيرا أن هذا العناد من قومه ، يحول بينه وبين حريته فى نشر دعوته ، وأنه إذا بقى فى مكة قريبا من المشركين ، سهل عليهم أمر مراقبته وإسكاته وخنق دعوته ، فلا تخلص إلى سائر العرب بيسر وسهولة ، فهاجر إلى يثرب ومعه رفيقه أبو بكر الصديق ، وفى طريقه إلى مهاجره كانت تقوم خيمة منصوبة على قارعة الطريقة وهى خيمة أم معبد ، وأم معبد هذه : امرأة برزة جليلة لا ترى بأسا فى أن تظهر للرجال فتجالسهم وتحادثهم ، وقد اتخذت فى الطريق بين مكة والمدينة خيمة أعدت فيها كل ما تستطيع تقديمه لراحة المسافرين .

فكان المسافرون الذين يتعبهم السير يعرجون على خيمة أم معبد فيجدون فيها ما يحتاجون إليه من طعام وشراب واستجمام ، وحديث عذب نزيه تطرفهم به صاحبة الخيمة .

فكانت خيمتها ، أشبه بمحطة من محطات سكك الحديد ، أو فندق من فنادق المسافرين التى تقام فى الطرقات الشاسعة .

وأم معبد هى مدبرة ذلك الفندق المتواضع ، ولما أشرف ركب الهجرة على أم معبد وجدوها منهمكة فى تهيئة ما يلزم للمسافرين ، وإذا هى ترى فى هذا الركب سيدين جليلين ، وخادمين معها وأحد السيدين يمتاز : بحسن سمته ، وجلالة قدره ، وجمال طلعته ، ورفاقه الثلاثة يحيطون به ، يرفهون عنه ، ويبتغون راحته ، ويسارعون فى خدمته .

أما أم معبد ، فكانت موزعة الفكر ذاهلة اللب ، كأنها مأخوذة بمهابة ذلك السيد الذى نزل بها وما كانت تعرف من هو ؟ .

وإذا أبو بكر ينادى : يا أم معبد ، أما لديك ما نأكله ؟ .

قالت السيدة الجليلة : بلى يا سيدى ، ثم أسرعت فقدمت اليهم لبنا دون كفايتهم ، وأخذت تعتذر بأن السنة سنة جدب وقحط .

وحانت من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ التفاتة ، فرأى شاة رابضة فى جانب الخيمة وهى جافة الضرع مهزولة الجسم ، فقام إليها ومسح ضرعها ، وأم معبد تتعجب وتقول فى نفسها ماذا عساه يفعل ؟ . وإذا هو يحلب الشاة ، وإذا هى تدر باللبن ، فشربوا حتى إذا ارتووا واستراحوا ، هبوا عجلى إلى ركائبهم واستبقوا طريقهم إلى المدينة تاركين أم معبد فى دهشة من أمرهم .

وبعد هنيهة قدم عليها زوجها أبو معبد فرآها مضطربة متغيرة اللون ، ورأى فى جنبات الخيمة آثار أكل وشرب ورغد وخصب .

فقال : يا أم معبد ما الخبر؟ وما هذا الذى أرى ؟ فأخبرته بخبر المسافرين الذين نزلوا بها ، وأن واحدًا منهم قام إلى نعجتها هذه العجفاء الجافة الضرع فحلبها فدرت لبنا غزيرا . ولم يكن بد للرجل أن يسأل زوجته : يا أم معبد ، صفى لى هذا الرجل العجيب . فقالت : « إنه ظاهر الوضاءة ، مليح الوجه ، حسن الخلق ، لم تعبه ثجلة (كبر بطن) ولم تزد به صعلة (صغر رأس) فى عينيه دعج (سواد على سعتها) ، وفى أشفاره وطف (طول الأهداب) ـ وفى صوته صحل (بحة) أحور (شدة بياض العين مع شدة سوادها) ، أكحل ، أزج (رقيق الحاجبين) طويلها ، أقرن (متصل الجانبين) ، شديد سواد الشعر ، فى عنقه سطع (طول العنق) وفى لحيته كثاثة (كثافة الشعر) ، إذا صمت فعليه الوقار ، وإذا تكلم ، علاه البهاء ، كأن منطقه خرزات نظمن ثم تحدرن ، حلو المنطق ، لا نذر ولا هذر ، أجهر الناس إذا تكلم ، وأجلهم من بعيد .

وأحلاهم وأحسنهم من قريب . ربعة : لا تشنؤه ـ لا تبغضه ـ العين من طول ، ولا تقتحمه ـ لا تحتقره ـ من قصر ، غصن بين غصنين : له رفقاء يحفون به : إذا قال يستمعون لقوله ، وإذا أمر يتبادرون لأمره ، محفود : يتسارعون إلى خدمته ، محشود ـ يحتشد الناس حوله لا سمّاع كلامه ـ . لا هو عابس ولا مفند ـ لا يكثر لوم جلسائه » .

فلما سمع أبو معبد هذا الوصف . قال ـ وقد علاه الوجوم ـ : ويحك يا أم معبد إن هذا هو صاحب قريش الذى يطلبونه ، وقد بذلوا جعلا لمن يرده إليهم ، ثم تركها وأخذ يشتد فى إثر الركب حتى أدرك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأسلم . ورجع إلى قبيلته يبشرهم بالإسلام وجعل رجال القبيلة الذين بلغهم خبر مرور النبى بأم معبد . يفدون على خيمتها : يستوصفونها صفة رسول الله وهى تصفه لهم ، حتى قال لها قائل منهم : يا أم معبد . ما بال وصفك للرسول أو فى وأتم من وصفنا له لو رأيناه نحن معشر الرجال ؟ .

قالت أم معبد : «أما علمتم أن المرأة إذا نظرت إلى الرجل . كان نظرها أشفى : (أدق وأشمل) من نظر الرجل إلى الرجل» .

هذا . وأما الحسن فى خُلقه العظيم فإنه : يتجلى لرائديه فى صور كثيرة لا يكاد يجمعها كتاب حافظ ، ولا يحصيها سجل واع ، والقليل الذى يذكره الثقات من أهل العلم يدل على الكثير .

وأول مواطن الحسن فى خلقه العظيم وأولاه بالذكر فى هذا المقام : بعد همته وكبر نفسه منذ كان صبيا : فقد كان يوضع لجده عبد المطلب فراش فى ظل الكعبة يجلس عليه ويجلس من حوله أبناؤه ، فيجئ محمد بن عبد الله طفلا يدرج على الأرض فيجلس إلى جانب جده على فراشه فيحاول أعمامه تنحيته ، فيقول لهم عبد المطلب : « دعوا ابنى وما أراد ، فإن له لشأنا عظيما » .

ومن مواطن الحسن فيه أيضًا ، ما يرويه الإمام السهيلى عنه وهو : فى كفالة عمه أبى طالب بعد موت جده ، فقد كان ـ صلوات الله عليه ـ يتيما ليس له أب يرحمه ، ولا أم ترأمه .

وقد كان عيال أبى طالب كثرا فى شظف من العيش فكان يوضع لهم الطعام فيتطاولون إليه ويتقاصر هو عنه ، وتنبسط أيديهم وتنقبض يده . تكرما منه واستحياء ونزاهة نفس . وقناعة قلب ثم يصبحون على ذلك وهم غمص رمص مصفرة ألوانهم ، ويصبح هو صقيلا نظيفا . كأنه فى أنعم عيش وأعز كفاية .

ومن هذه المواطن ، ما ذكره الإمام السهيلى من قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما روى البخارى : «ما هممت بشىء من أمر الجاهلية إلا مرتين :

إحداهما : أنى كنت مع غلام فى غنم أرعاها فقلت : « اكفنى أمر الغنم الليلة حتى آتى مكة ـ وكان بها عرس فيه لهو وزمر ـ فلما دنوت من الدار ألقى النوم على فنمت حتى ضربتنى الشمس » .

وثانيتهما : « أننى قلت لصاحبى مثل ما قلت فى المرة الأولى . وألقى النوم على كما ألقى فى المرة الأولى » .

ومن هذه المواطن العظيمة : حرصه على وفائه بوعده حتى لمن أساء إليه ، وآية ذلك ما ذكره ابن سعد « فى الطبقات » عن عثمان بن طلحة قال :

كنا نفتح الكعبة فى الجاهلية يومى الاثنين والخميس فأقبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوما يريد أن يدخل الكعبة مع الناس ، فأغلظت له ونلت منه ، فحلم عنى ثم قال :

« يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يوما بيدى أضعه حيث شئت » .

فقلت : لقد هلكت قريش يومئذ وذلت .

فقال : « بل عمرت وعزت » ودخل الكعبة .

غير أن كلمته هذه وقعت منى موقعا ظننت معه أن الأمر صائر إلى ما قال . فلما كان يوم فتح مكة نادانى ثم قال لى :

« ائتنى بالمفتاح يا عثمان » ، فأتيته به ، فأخذه منى ثم دفعه إلى وقال :

« خذوها خالدة تالدة . يا عثمان ، إن الله استأمنكم على بيته فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف » ، ثم وليت والمفتاح فى يدى فنادانى فرجعت إليه .

فقال : « ألم يكن الذى قلت لك ؟ » .

فأجبته بلى أشهد أنك رسول الله .

يقول سعيد بن المسيب : إن العباس بن عبد المطلب ـ فى رجال من بنى هاشم ـ تطاولوا يومئذ لأخذ المفتاح ولكن رسول الله رده إلى عثمان بن طلحة ثم أمر بلالا أن يصعد فيؤذن على الكعبة .

وقد كان أبو سفيان بن حرب ، فى أشراف من قريش جلوسا بفناء الكعبة ـ وبلال يؤذن ـ .

فقال أحدهم : لقد أكرم الله أبى فمات قبل أن يسمع هذا فيغتاظ .

وقال آخر : أما والله لو أنه حق لاتبعته .

فقال أبو سفيان : أما أنا فلا أقول شيئا ولو أنني قلت ، لأخبر عني هذا الحصا في المسجد ثم خرج عليهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما نظروا إليه قالوا : نشهد أنك رسول الله .

ومن هذه المواطن العظيمة : قبوله عذر المعتذر إليه بصدق أو كذب ، وآية ذلك ، رحمته حاطب بن أبي بلتعة بقبوله عذره الذى اعتذر به على ما روى ذلك الإمام ابن القيم فى حديث فتح مكة ، فقال : أمر ـ صلى الله عليه وسلم ـ الناس بالجهاز للفتح . وأمر أهله أن يجهزوه فتجهز الناس غير أن حاطب بن أبي بلتعة ، كتب إلى قريش بمكة كتابا يخبرهم فيه بمسير رسول الله إليهم ثم دفع بالكتاب إلى امرأة جعل لها جعلا ، على أن تبلغه قريشا ، فجعلته فى قرون رأسها . ثم خرجت به وقد علم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما صنع حاطب . فبعث عليا والمقداد قائلا لهما : « انطلقا فى إثر ظعينة معها كتاب إلى قريش » . فانطلقا حتى وجدا المرأة فاستنزلاها وقالا لها : هات الكتاب الذى معك .

فقالت : مامعى كتاب ، ففتشا رحلها فلم يجدا شيئا .

فقال لها على : أحلف بالله ، ماكذب رسول الله ولاكذبنا ، والله لتخرجن الكتاب أو لنجردنك حتى نعثر عليه . فلما رأت المرأة الجد .

قالت : أعرضا عنى ، ثم حلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها فدفعته إليهما فأتيا به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإذا فيه : «من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش وإذا هو يخبرهم بمسير رسول الله إليهم فى جيش كثيف» .

فدعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حاطبا ثم سأله « لم صنع هذا » ؟

فقال : لا تعجل على يا رسول الله ، والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ، ولا والله ما ارتددت ولا بدلت . ولكنى كنت امرأً ملصقا فى قريش لست من أنفسهم ولى فيهم أهل وعشيرة وولد . وليس لى فيهم قرابة يحمونهم ، وكان من معك ـ يا رسول الله ـ لهم قرابات يحمونهم ، فأحببت أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتى .

فقال عمر بن الخطاب : دعنى يا رسول الله أضرب عنقه فإنه قد نافق وخان الله ورسوله .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «إنه قد شهد بدرا وما يدريك ياعمر؟ لعل الله قد اطلع على أهل بدر ، فقال : « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » فذرفت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم .

ومن مواطن العظمة فى أخلاقه الشريفة : بره بأمه ـ رضى الله عنها ـ وهى ميتة ، مقبورة فى قرية تعرف بالأبواء بين مكة والمدينة .

فقد ذكر الإمام السهيلى فى « روضه » عن أم المؤمنين عائشة : أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو فى طريقه إلى مكة حاجا حجة الوداع عرف قبر أمه فوقف واستوقف ألف مقنع من حوله ، ثم أخبرهم أن أمه مقبورة فى هذا المكان ، ثم مشى فى البادية فلبث قليلا ثم عاد وعلى وجهه خشوع ، وفى عينيه دموع فسأله أصحابه عن سر ذلك فأنبأهم قائلا لهم : « هنا ماتت أمى ، وهنا دفنت ، وقد ذكرت ضعفها فبكيت » .

والعبرة من ذلك الحديث أن سنه فى حجة الوداع قد نيفت على الستين . ومع ذلك يذكر أمه فيبكى ، وقد كان يعرف قبر أبيه على ما يذكر ذلك أهل السير فيقولون : إنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يجلس بين أصحابه فيشير إلى دار النابغة فى المدينة المنورة ثم يقول لهم : « هنا فى هذه الدار نزلت بى أمى . وهنا مات أبى » ثم لا يزيد على ذلك شيئا . ولكنه حين يمر على قبر أمه وقد جاوزت سنه الستين لا يسعه إلا أن يخشع وتدمع عيناه ويذكر لأصحابه سر بكائه . وأن أمه ماتت فى هذا الموضع وقبرت وأنه ذكر ضعفها فبكى ، ومبلغ علمى أنك لا تجافى الحقيقة ولا تتجهم الفطرة ، إذا رأيت هذا المعنى الكريم من الوفاء للأم يتمثل على غاية الوضوح فى عنايته ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأمر الأم ووصاته أصحابه ، وأهل الإسلام كافة بأن يختصوا أمهاتهم بمزيد من برهم بهن ، ناظرا فى ذلك إلى القرآن العظيم حيث أمر المسلم ببر أبويه ثم اختص الأم حيث قال سبحانه : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ ﴾ . الآية من سورة الأحقاف .

كذلك قوله سبحانه : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ الآية من سورة لقمان .

ففى هاتين الآيتين الشريفتين ، يأمر الله تعالى ببر الوالدين جميعا ، ثم يذكر السبب الداعى إلى البر بالأم ، ليكون ذلك أقوى فى حث الهمم والجد فى كل مامن شأنه أن يقر عين الأمومة ويبلغ غاية رضاها فعن هذا المعنى ـ فى مبلغ ما نعلم ـ وقف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على قبر أمه واستوقف ألف مقنع من أصحابه ، ثم بكى وأبكاهم معه ، وذلك فى باب البر والوفاء جد عظيم .

ومن مواطن العظمة فى خلقه العظيم أيضا . أنه : كان يؤانس أصحابه ويلاطفهم بشىء من

المزاح الذى يليق بالكبار من أهل المروءات . وخير مثل نضربه لهذا المعنى قصة خوات بن جبير الأنصارى مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث قال فيما روى ابن الأثير : خرجت من خبائى ذات يوم فإذا أنا بنسوة يتحدثن . وفى أيديهن ليف يفتلنه حبالا فأعجبنى . فرجعت فاستخرجت حلة فلبستها . وجئت فجلست معهن . وخرج رسول الله من قبة . فلما رأيته ـ صلى الله عليه وسلم ـ . هبته واختلطت . فقلت يا رسول الله : لى جمل شرود فأنا ابتغى له قيدا من أولئك النسوة يفتلنه لى من ليف . فمضى رسول الله واتبعته فألقى إلى رداءه ودخل وادى الأراك قرب مكة وتوضأ ثم أقبل والماء يسيل على صدره من لحيته .

فقال : « أبا عبد الله . ماذا فعل ذلك الجمل » ؟ . ثم ارتحلنا فجعل لا يلحقنى فى المسيرة إلا قال لى : « السلام عليك أبا عبد الله . ما فعل جملك الشارد ؟ » فلما رأيت ذلك من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . تغيبت إلى المدينة واجتنبت المسجد والجلوس إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حياء منه . فلما طال ذلك على . أتيت المسجد . فقمت أصلى فخرج رسول الله ذات يوم من بعض بيوته فجاء فصلى ركعتين . فطولت أنا صلاتى رجاء أن ينصرف رسول الله ويتركنى .

فقال لى يا أبا عبد الله : «طول ما شئت أن تطول . فلست بمنصرف حتى تنصرف» فقلت فى نفسى والله لأعتذرن إلى رسول الله ولأبرئن صدره . فلما انصرفت .

قال : « السلام عليك أبا عبد الله ما فعل بعيرك الشارد ؟

فقلت : والذى بعثك بالحق . لقد عقله الإسلام يا رسول الله .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يرحمك الله يا أبا عبد الله » وكرر ذلك ثلاث مرات .

ومن مواطن الحسن فى أخلاقه ـ صلوات الله عليه ـ : حرصه الشديد على توضيح بيانه للناس . وهذا الحرص . يتراءى لرائيه فى صورتين . كلتاهما معوان على وضوح المعنى فى أذهان المخاطبين :

أولاهما : التؤدة فى حديثه لأصحابه .

وثانيتهما : ضربه الأمثال من قصص السالفين .

فأما التؤدة فى إلقاء الأحاديث فشاهده ما أخرجته كتب السنة من أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : كان يتحدث الحديث لَوْعدَّه العادُّ لأحصاه . فلم يكن ليسرد الحديث ويوالى بين كلماته كما يفعل سائر الناس . بل كان يعيد الكلمة ثلاث مرات لتعقل عنه . وذلك هو شأن المربين

الذين يبتغون للآخذين عنهم ، الانتفاع بما يسمعون ، فى مجال العلم ومجال العمل .

وأما ضربه الأمثال ، فقد كان ـ صلوات الله عليه ـ ينتزع المثل للمخاطبين من قصص السالفين ، وهو أكثر من أن يحصر فى هذا المقام .

ولا يعزبن عن علمك ـ حفظك الله ـ أن القصص فى التراث الإسلامى يمتاز بخصائص ثلاث هى : صدق التاريخ ، وكرم الأسلوب ، وشرف الغاية .

ومن أوضح ما تتضح فيه هذه الخصائص الثلاث : القصة التى أخرجتها صحاح كتب السنة وفيها : أن ثلاثة مسافرين من أهل الإيمان جمعت بينهم فى سفرهم وحدة الطريق ، وأنس بعضهم ببعض أدب الدين .

ومازالت الرفقه فى السفر ، أنسا من وحشة ، وأمنا من مخافة .

وقد مضى أولئك الثلاثة المؤمنون فى طريقهم إلى الغاية التى يبتغون الوصول إليها آخذين بأطراف الأحاديث بينهم يستعينونه على مشقة السفر ووحشة الطريق ، ومازال القوم على ذلك حتى أفضى بهم المسير إلى بادية استعجمت فيها المعالم . فجعلوا يسيرون تائهين تضمرهم الأودية . وتظهرهم التلال .

وفيما هم على ذلك . والحديث مطيتهم الذلول ـ إذ العواصف تزأر والسحب تتراكم والرعود تكاد تصم الأذان . والبروق تكاد تخطف الأبصار . ثم إذا هم على ذلك ـ نهبى برد قارس ، وحيارى ظلام دامس . وفرائس هم مقعد مقيم .

وعلى غير توقع منهم لاح لهم من خلال البرق جبل فولوا وجوههم شطره ، فلما بلغوه رأوا فى أحضانه غارا ظنوا أن فيه أمنا لهم مما هم فيه ، فألقوا بأنفسهم فى جوفه إلقاء من لا يبالى ضوارى السباع . ولا فواتك الهوام والحشرات حتى إذا اطمأن بهم مجلسهم وذهب عنهم روعهم ، رجفت الأرض رجفة زلت بها عن الجبل صخرة سدت عليهم فم الغار فلم يجدوا وسيلة إلى النجاة مما هم فيه من بلاء . إلا بأن يفزعوا إلى الله يرجونه بكل ما فى صدورهم من إيمان ، ويتوسلون إليه بكل ما قدموا فى حياتهم من صوالح الأعمال . حتى يكشف الله عنهم البلاء ثقة بوعد الله تعالى : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ » الآية : من سورة المائدة .

وما أن طافت هذه الخاطرة بأذهانهم حتى أجمعوا أمرهم على أن يتوسلوا إلى الله بما قدموا من

عمل صالح لعل الله أن يستجيب لهم فيكشف عنهم مالا نجاة منه إلا برحمة من الله ورضوان .

فقال أحدهم : إنه كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت أرعى عليهما ولا أقدم لبنا لأحد قبلهما فى مساء أو صباح ، وذات يوم نأى بى طلب المرعى فلم أتمكن من تقديم وجبة المساء إليهما فلما جئتهما وجدتهما مستغرقين فى نوم عميق فكرهت أن أوقظهما من نومهما . وكنت قد حلبت لهما شرابهما ولكننى استعظمت أن أسقى أحدا قبلهما مع أن أطفالى كانوا يتصايحون عند قدمى من شدة الجوع . وأنا قائم بجانب فراشهما والقدح على يدى . فى انتظار نهوضهما من الفراش حتى برق الفجر فاستيقظا فسقيتهما .

اللهم : إنك تعلم أننى لم أقصد بذلك إلا وجهك الكريم فأضرع إليك متوسلا بهذا العمل أن تفرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة شيئا يسيرا لا يأذن لهم بالخروج .

وقال ثانيهما : أما أنا فقد كنت أوثر الزواج من فتاة ذات فتنة وجمال . وقد كنت خطبتها إلى وليها فأبى أن يزوجنيها ، ثم مضى بنا الزمن . يزيدنى كر الغداة ومر العشى حبا لها وتعلقا بها وأسفا على حرمانى منها . وقد جاءتنى ذات يوم تطلب عونى على شدائد الدهر وتشكو إلى ضيق ذات اليد . ولم أرها فى يوم من الأيام أشد فتنة وأكثر إغراء منها فى ذلك اليوم فراودتها عن نفسها فامتنعت حتى ألم بها الجدب ذات سنة فجاءتنى كما جاءت من قبل فأعطيتها مائة دينار ، على أن تخلى بينى وبين نفسها فقبلت تحت وطأة حاجة ملحاح ، غير أنها أخذت تخوفنى عذاب الله وتذكرنى بأنه لا يحل لى ذلك منها إلا بحق العقد . فوجدت لكلماتها من الأثر فى نفسى ما خيل إلى أننى أكاد أرى ــ عيانا ــ نعيم الجنة للطائعين ، وعذاب النار للعاصين ، فتركتها لذلك وتركت لها مع ذلك ما بذلته من مال . وقد أضعفته لها إشفاقا عليها من ذل الحاجة وصيانة لها من سوء المصير .

اللهم : إنك تعلم أننى لم أصنع ذلك إلا ابتغاء وجهك الكريم فإن كنت فى ذلك صادقا أبتغى مثوبتك وأخشى عقابك ، ففرج عنا بفضلك ما نحن فيه . فاستجاب الله دعاءه فانفرجت الصخرة شيئا لا يتمكنون معه الخروج .

وغير خفى على ذى بصيرة أن انفراج الصخرة مهما يكن يسيرا لا يأذن لهم بالخروج من الغار فإنه قد ضاعف الأمل فى انفراج الصخرة ونجاتهم مما كانوا فيه من بلاء عظيم .

وقال ثالثهم : لقد كنت استأجرت أجراء يعملون لى عملا فى بستان ثم أعطيتهم أجورهم غير

رجل واحد منهم . ترك أجره وذهب فثمرت أجره ونميته له حتى كثرت منه الأموال . فجاءنى بعد حين يقول لى :

يا عبد الله أعطنى أجرى الذى لى عندك فأخذت بيده قائلا له :

أفترى البقر والغنم والإبل الذى فى سمت بصرك إنه كله أجرك ثمرته لك . ونميته حتى صار إلى ما ترى فاذهب فخذه بارك الله لك فيه فأجابنى آسفا وهو يقول : يا عبد الله لا تستهزئ بى أو تسخر منى بعزة الغنى وذلة الفقير.

فقلت : إنى الله ـ لا أستهزئ بك ولا أسخر منك بدليل أننى أطلب إليك أن تأخذه كله . سائلا الله تعالى أن يبارك لك فيه . فاطمأن الرجل وهدأت نفسه واستاق كل مارأى من إبل وغنم وبقر.

اللهم : إنك تعلم أننى إنما فعلت ذلك ابتغاء وجهك الكريم . فإن كنت فى ذلك صادقا . ففرج عنا ما نحن فيه يا ذا الجلال والإكرام .

فاستجاب الله الدعاء فانفرجت الصخرة فخرج الثلاثة سعداء بما أنعم الله عليهم . وبما جمع بين قلوبهم من كمال الإيمان بالله وجمال الأخوة فى ذات الله . وهكذا تتجلى نعمة الله بالدين فيزداد طلاب الحق إيمانا بأن الله تعالى لا يضيع أجر المحسنين . وبأن العمل الصالح أقرب الوسائل إلى الظفر بمرضاة الله ينتفع به العامل فى الدنيا ويومَ لا ينفع مالٌ ولا بنون إلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ .

ومن هذا اللون من القصص الشريف . قصة أخرجتها الصحاح أيضا وفيها : أن الله أراد أن يبتلى ثلاثة نفر من بنى إسرائيل : أبرص وأقرع وأعمى . فبعث ـ سبحانه ـ إليهم ملكا فجاء إلى الأبرص فسأله : أى شيء أحب إليك ؟ قال : جلد حسن . ولون حسن . يذهبان بالبرص الذى قذرنى الناس من أجله . فمسحه الملك فذهب عنه قذره . وأعطاه الله لونا حسنا وجلدا حسنا . ثم سأله الملك أيضا : أى المال أحب إليك ؟ قال : الإبل أحب شيء إلى فأعطاه الملك ناقة عشراء . أتى على حملها عشرة أشهر . قائلا له : خذها بارك الله لك فيها .

ثم جاء الملك إلى الأقرع فسأله : أى شيء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن . يذهب بهذا القرع الذى قذرنى الناس من أجله فمسحه الملك . فذهب عنه قرعه وأعطاه الله شعرا حسنا . ثم سأله الملك أى المال أحب إليك ؟ قال : البقر أحب شيء إلى فأعطاه بقرة حاملا . قائلا له : خذها بارك الله لك فيها .

ثم جاء الملك إلى الأعمى فسأله : أى شيء أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله على بصرى فمسحه الملك فرد الله عليه بصره . ثم سأله الملك : أى المال أحب إليك ؟ قال : الغنم أحب شيء إلى . فأعطاه شاة ولودا عرف منها كثرة النتاج .

ثم انصرف ثلاثتهم ينمون ما أعطاهم الله فأنتج صاحب الناقة ناقته . وصاحب البقرة بقرته . وولد صاحب الشاة شاته . فكان لهذا وادٍ من الإبل . ولهذا وادٍ من البقر . ولهذا وادٍ من الغنم .

ثم إن الملك جاء إلى الأبرص فى صورة رجل أبرص يقذره الناس فقال له : رجل مسكين تقطعت بى الأسباب فى سفرى فليس لى ما أبلغ به غايتى من السفر إلا بمعونة من الله ثم منك . فأنا أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن . والجلد الحسن . والمال الكثير . بعيرا أتبلغ به فى سفرى . فأجابه ـ فى كبرياء : الحقوق كثيرة .

فقال له : كأنى أعرفك يا هذا ألم تكن أبرص يقذرك الناس . فقيرا يعينك الناس فأعطاك الله وأغناك ؟ .

فقال : إنما ورثت هذا المال عن آبائى وأجدادى .

فقال الملك : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ماكنت فيه من قبل .

ثم جاء الملك إلى الأقرع فى صورة رجل أقرع فقال له : رجل مسكين وعابر سبيل وقد تقطعت بى الأسباب فى سفرى فليس بى ما أبلغ به غايتى من السفر إلا بمعونة من الله ثم منك . فأنا أسألك بالذى أعطاك الشعر الحسن . والمال الكثير بقرة أتبلغ بها فى سفرى فأجابه ـ فى كبرياء : ـ الحقوق كثيرة .

فقال له : كأنى أعرفك يا هذا ألم تكن أقرع يقذرك الناس . فقيرا يعينك الناس فأعطاك الله الشعر الحسن والمال الكثير؟

فقال : إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر .

فقال الملك : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ماكنت فيه من قبل .

ثم جاء الملك إلى الأعمى فى صورة رجل أعمى فقال له : رجل مسكين وعابر سبيل . وقد تقطعت بى الأسباب فى سفرى فليس لى ما أبلغ به غايتى من السفر إلا بمعونة من الله ثم منك ، فأنا أسألك بالذى رد عليك البصر وأعطاك المال . شاة أتبلغ بها فى سفرى .

فقال : لقد كنت أعمى فرد الله علىّ بصرى ، وفقيرا فأعطانى الله هذا المال فخذ ما شئت . ودع ما شئت . فوالله لن أمنعك شيئا ولا أمتن عليك بشيء .

فقال له الملك : أمسك عليك مالك . فإنما ابتليتم ثلاثتكم فرضى الله عنك ، وسخط على صاحبيك .

وهكذا يتجلى على غاية الوضوح المعنى الذى قصد إليه رسول الله من ضرب المثل بهذه القصة مشيرا بها إلى أن الإنسان إذا ركب هواه ورفع نفسه فوق قدره اِسْتطالةً على الناس ، فإن ذلك يفضى به إلى سخط الله وربما أفقده ذلك شرف دنياه وسعادة أخراه .

ومن مواطن العظمة فى خلقه العظيم : عنايته البالغة بتربية الرأى الاجتماعى العام ، تربية تستند ـ فى بقائها ونمائها ـ إلى الحديث النبوى الشريف : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » فإن هم عملوا بمقتضى هذا الحديث وتأدبوا بأدبه الشريف ، فقد تكافلوا تكافلا يقيمهم على حاق الطريق ، ويدنى إليهم السيادة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة غير ظالمين ولا مظلومين .

ومن أشرف صور هذا التكافل وأنفعها لدنيا الإسلام والمسلمين ، ماكان يحدّث به أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ فيقول :

جاء رجل إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : إن لى جارا يؤذينى . فقال له ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اصبر » .. ثم جاءه شاكيا مرة ثانية فقال : إن جارى يؤذينى يا رسول الله ، فقال له ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اصبر » ثم جاءه الثالثة ضائق الصدر بادى الحزن ، فقال : لا يزال جارى يؤذينى يارسول الله ، فقال رسول الله : « انطلق وأخرج متاعك إلى الطريق » ، فامتثل الرجل الأمر فأخرج متاعه وجلس به على الطريق ، فجعل الناس يمرون به فيسألونه ما شأنه ؟ فيقول لهم : إن لى جارا يؤذينى فشكوته إلى رسول الله ثلاث مرات فأمرنى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن أصير إلى ما ترون ، وأجلس بمتاعى هكذا فرارا من أذى جارى إياى ، فجعلوا يقولون : اللهم العنه ، اللهم اخزه ، ما أسوأه من جار .

فلما بلغ الرجل لعن الناس إياه ، فزع إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له : إن الناس يلعنوننى يا رسول الله . فقال له ـ صلوات الله عليه ـ : « وما يدريك أن الله لم يلعنك قبل أن يلعنك الناس ؟ » « ثم أمره أن يذهب إلى صاحبه فيعتذر إليه ويستغفر الله له » ، ولم يسع الرجل إلا أن يمتثل الأمر ، فذهب إلى جاره وقال له ارجع إلى منزلك فوالله لا أوذيك بعد ذلك

أبدا ، فرجع الرجل إلى منزله قرير العين بما تهيأ له من عيشة راضية بين أهله وولده .

ووجه العبرة من هذا الحديث . أن الله تعالى أمرنا بالإحسان إلى الجار مقترنا بعبادة الله وحده لا شريك له وبالإحسان إلى الوالدين وذوى القربى ، على ما يقول سبحانه فى الآية من سورة النساء : « وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا » ..

وكذلك أوصى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالجار مسلما كان أو غير مسلم ، وذلك بمواساته وحسن عشرته وكف الأذى عنه .

فقد روى البخارى عن أم المؤمنين عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيُورِّثُه » .

فهذا الذى كان يؤذى جاره لم يكن يخفى عليه ما جاء فى كتاب الله ، وفى حديث رسول الله ولم يكن ليخفى عليه قبل ذلك ، ماكان العرب يعتزون به فى الجاهلية من رعاية حقوق الجار ورعاية حرماته .

فهذا الذى كان يؤذى جاره كان عربيا لا يخفى عليه أدب العرب فى الجاهلية وحرصهم على رعاية حرمة الجار ، ثم اعتنق الإسلام على ذلك ، فلم يكن ليخفى عليه ما قال الله تعالى . وقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى رعاية حقوق الجار ، ومع ذلك لم يتخلق بأخلاق العرب ولا تأدب بأدب الإسلام حتى إذا لامه الناس على سوء سلوكه مع جاره فزع إلى رسول الله يستغيث به ويطلب حمايته .

وليس لهذا التصرف العجيب سبب فى مبلغ ما نعلمه إلا أن قوة الرأى العام أهيب عند بعض الناس من قوة الدين .

ومن مواطن العظمة فى خلقه العظيم : حلمه عن الجاهل بالغا ما بلغ سوء أدبه فى بعث الحفائظ وإثارة الأحقاد . وآية الصدق فى هذه الدعوى . ما يرويه الإمام السهيلى فى « روضه » حيث قال : إن زيد بن سعنة أحد أحبار اليهود ، كان قد داين رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ثم جاء إليه فى مجلسه يقتضيه دينه قبل حلول أجله فقال : ألا تقضينى يا محمد ، فإنكم يا بنى عبد المطلب قوم مطل .

وقد كان فى مجلس رسول الله . عمر . فجعل يرتعد من شدة الغيظ . وكاد يبطش بالحبر وهو يقول له : أتقول هذا لرسول الله يا عدو الله ؟ .

ولكن رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ قال : « مهلا يا عمر فإن لصاحب الحق مقالا . وإنا لمحتاجون منك إلى غير هذا : أن تأمرنى بحسن الأداء وتأمره بحسن الاقتضاء . ولا والله ما حلّ أجل دينه . فقم يا عمر فاقضه عنى دينه وزده فيه . بما روّعته » .

وما أن سمع الحبر الجليل هذا القول . ورأى هذا الحلم فى خلقه . وهذه السماحة فى بذله حتى اعتنق الإسلام . لأنه رأى عيانا ما تضمنته التوراة من وصفه ــ صلى الله عليه وسلم ــ بمكارم الأخلاق . وقد سار الرجل فى جيش رسول الله إلى غزوة تبوك وهى الغزوة التى رجع الجيش فيها بغير قتال .

ومن مواطن العظمة فى شمائله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : رغبته الكريمة فى رفع خسيسة المرأة رفعا يدافع على مدى الدهر ماكانت المجتمعات الجاهلية تحيطها به من مذلة وصغار .

وآية ذلك : أنه كان يحمل أمامة بنت العاص بن الربيع على عاتقه وهو فى الصلاة بين يدى رب العالمين . وكأنه يقول بلسان الحال الذى هو أفصح وأقوى من لسان المقال : إن البنت التى تحزنون لمولدها . وتئدونها حية فى التراب . هى التى أتقرب أنا بها إلى الله وأنا بين يديه فى الصلاة .

ولئن كان هذا المعنى الجليل . لونا من إنصاف المرأة وليدة أو جارية .

لقد كان ــ صلى الله عليه وسلم ــ يأمر بالتسوية بينها وبين إخوتها من الذكور فى العطية على ما جاء فى الحديث الذى رواه ... البخارى عن النعمان بن بشير الأنصارى الخزرجى قال : أعطانى أبى بشير بن سعد عطية . فقالت له أمى عمرة : لا أرضى حتى تشهد رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ . أنك أعطيت ابنى النعمان هذه العطية على سبيل الهبة . فجاء أبى إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : إنى أعطيت ابنى من عمرة عطية فأمرتنى أمه عمرة أن أشهدك على ذلك يا رسول الله . فسأله ــ صلوات الله عليه وسلامه ــ : « هل أعطيت سائر ولدك مثل الذى أعطيته ولدك من عمرة » ؟ قال : لا .

فقال ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « أَشْهِدْ على هذا غيرى فإنى لا أشهد على جور » ثم قال : « اتقوا الله أيها الناس واعْدِلوا بين أولادكم » .

فى هذا الحديث . يقول شيخ الإسلام الشرقاوى : إن الإمام أحمد بن حنبل تمسك بهذا الحديث فى وجوب العدل فى عطية الأولاد . وفى أن تفضيل أحدهم ظلم وحرام إلا لضرورة تقتضى التفضيل كما لو كان الولد أرشد إخوته . أو كان الولد به داء يحتاج معه إلى فضل غنى .

وغير خفى على أهل العلم أن الولد يشمل الذكر والأنثى فإذ قد أمر رسول الله بالعدل بين الأولاد فقد وجب أن يسوّى فى العطية والهبة بين الذكور والإناث .

وقد أدركنا نحن من سوّى بين أولاده فى العطية بغير فرق بين الذكور والإناث . وهو من أهل العلم وأهل الفضل وأهل الدين . ويكفى فى تسويغ هذا العمل . هذا الحديث النبوى الشريف .

ويجرى مع هذه الصورة فى سبيل تكريم المرأة ورفع خسيستها . صورة ذات أثر عظيم فى دفع سوء الأحدوثة عن الإسلام من أعدائه الذين لا يكفون عن زعمهم لأوليائهم . بأن الإسلام لم ينصف المرأة ولم يكرمها كما كرمتها حضارات أخرى غير الحضارة الإسلامية .

وهذه الصورة التى يتراءى فيها تكريم الإسلام للمرأة . أخذ النبى برأى أم سلمة على ما جاء فى الحديث الذى أخرجه البخارى وأبو داود عن عروة بن الزبير والمسور بن مخرمة فى حديث صلح الحديبية .

وفيه أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ خرج مع أصحابه يريد العمرة فأبى المشركون عليه ذلك وهم يقولون : والله لا تتحدث العرب أنك أكرهتنا فدخلت مكة على الرغم منا . ولكن تدخلون وتطوفون بالبيت من العام المقبل .

فقبل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ هذا العرض وكتب بينه وبين المشركين كتاب صلح يقوم على : أن يرجع المسلمون عن دخول مكة والطواف بالكعبة هذا العام على أن يكون لهم ذلك الحق فى العام المقبل .

فلما فرغ القوم من قضية الكتاب أمر النبى أصحابه أن يقوموا فيحلقوا وينحروا لأن الهدى قد بلغ محلّه ، ولكن القوم لم يقوموا فكرَّر رسول الله أمره هذا ثلاث مرات فلم يقم منهم أحد .

وقد آذى ذلك رسول الله إيذاء شديدا . فدخل على أم سلمة يذكر لها ما لقى من الناس فذكرت له ــ رضى الله عنها ــ ، أن يخرج إلى القوم ولا يكلم منهم أحدا فينحر هديه ويدعو بحالقه فيحلقه ، فخرج ــ صلى الله عليه وسلم ــ من بيت أم سلمه فلم يكلم أحدا من أصحابه حتى فعل الذى قالته له أم سلمه من نحر الهدى وحلق الشعر ، فلما رأى ذلك أصحابه . قاموا

فنحروا . وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد يقتل بعضهم بعضا غماً . وبهذا انتهت المحنة التى أوشكت أن تنزل بالمسلمين من البلاء ما لا قبل لهم به ، ولا خير لهم فيه .

وبملاحظة هذا المعنى على ما ينبغى له ، لا تكون هناك مندوحة عن تسفيه الكلمة التى جرت على ألسنة الناس مجرى الأمثال السائرة والحكم المسلمة ، وهى قول العامة وأشباههم : « شاوروا النساء وخالفوهن » . فإنه لا معنى للأمر بالمشاورة إذا كان مقرونا إلى الأمر بالمخالفة ، ثم إن هذه الكلمة تناقض ـ لأول ما تقع فى السمع ـ ما صنعه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أخذه برأى زوجته أم سلمه فى صلح الحديبية .

ولا يستعصى على طالب الحق أن يستخلص من أخذ رسول الله برأى أم سلمة ، قاعدة تقوم على أنه إذا اقتنع المسلم برأى المرأة فى قضية من القضايا ، فإن له أن يأخذ به وأن يدعو الناس إليه ، فيكون رأى المرأة فى هذه الحال قائما على المشاركة بينها وبين الرجل فى تحرى الصواب . وربَّ معنى انفتح بابه للمرأة واستغلق على الرجل ، ورب معنى انفتح بابه للرجل واستغلق على المرأة .

ومن مواطن العظمة فى خلقه العظيم : ملاطفته الصغار على صورة تجعلهم يأنسون إليه فيقبلون على مجلسه وينتفعون بأدبه .

وآية ذلك : أنه كان يسلم عليهم كما يسلم على كبار أصحابه ، وربما مسح على رأس الصبى منهم فيعرف زملاؤه فى « الكُتاب » ، أن رسول الله مسح على رأسه بما يجدون من طيب رائحته ، فإن أنتَ حاولت أن تلتمس صورة لتعامله فى بيته مع أولاد بناته ، فإنك واجد تلك الصورة على غاية الوضوح فيما أخرجه النسائى عن عبد الله بن شداد عن أبيه ـ رضى الله عنهما ـ قال خرج علينا رسول الله من بيته فى إحدى الصلاتين : المغرب أو العشاء . وكان يحمل على عاتقه الشريف ، حسنا أو حسينا . فتقدم إلى الصلاة فوضع الصبى على الأرض ، ثم دخل فى الصلاة فسجد بين ظهرانى صلاته سجدة أطالها فرفع «شداد » رأسه ، فإذا الصبى على سول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو ساجد . فرجع « شداد » إلى سجوده فلما قضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصلاة قالوا : يا رسول الله إنك سجدت بين ظهرانى صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننا . أنه قد حدث أمر ، أو أنه يوحى إليك .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « كل ذلك لم يكن ، ولكن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله حتى يقضى حاجته » .

فقد انتظم هذا الحديث الشريف صورة من عنايةرسول الله بالأطفال . عناية لا تكاد تدانيها عناية فى دنيا الناس .

ذلك أنه ــ صلوات الله عليه ــ لم يشأ أن يحرم الطفل من متعته فيما تخيله من أنه أصبح من الكبار الذين يمتطون الرواحل فى الأسفار . وما فتئ الطفل يجد أبلغ السعادة فى التشبه بالكبار على أية صورة وفى كل حال .

هذا : وإذ قد أفضى بنا القول إلى هذه الغاية الشريفة من تزكية نسبه وتشريف خَلْقه وتعظيم خُلُقه ، فإن من الحق أن نذكر هنا ما يؤكد ذلك مما قررته أم المؤمنين عائشة ــ رضى الله عنها ــ ، فى مدحها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، واصفة إياه بأنه منزّه من كل غبر حيضة وفساد مرضعة .

وقد يسأل السائل من أين لأم المؤمنين عائشة أن تعرف ظروف حمل أمه ــ صلى الله عليه وسلم ــ به ، حتى تصفه هذا الوصف الذى لا يعرفه إلا من عاصر أمه آمنة . وذلك أمر لم يتهيأ لأم المؤمنين ؟ .

وجواب هذا السؤال : فى مبلغ ما نعلم ــ أنها قد استأنست فى ذلك الوصف بعرف عربى مضى فى الأمة العربية مُضِىّ القضايا الثابتة والحقائق المسلمة . فذلك حيث يقول أبو كبير الهذلى مادحا فتى عربيا عرف بقوة الجسم . وشدة الأسر . وشرف النفس . وسمو الخلق :

ومبرّئ من كل غبرّ حيضة ... وفساد مرضعة وداء مغيل

وليس يعيب عنك أن أم المؤمنين عائشة ــ فى وصفها النبى بشعر أبى كبير الهذلى ــ إنما كانت تستصحب العرف الذى أشرنا اليه آنفا وقد رضيه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأقر عليه أم المؤمنين ، والإقرار أحد أقسام السنة المطهرة إذ كانت السنة إما : قولا يقوله رسول الله . أو فعلا يفعله أو إقرارا لأصحابه على قول سمعه ، أو فعل رآه .

وليس يغيب عن المتأمل ، أن فى هذا الشعر فضائل لا يضيق بها رسول الله فى خَلْقه الشريف ولا فى خُلُقه العظيم . ذلك أنه مبرَّأٌ من حمل أمه به فى بقايا الحيض ، ثم هو جلد شديد قوى وكذلك هو لم يرث عن أمه داء صحبه فى بطنها . وكذلك لم ترضعه أمه وهى تغشى إذ كان أبوه قد مات ورسول الله حمل فى بطن أمه فذلك هو ما قصدته أم المؤمنين عائشة حين وصفته بما وصف به الهذ لى الشاعر . فتاه العربى الكريم .

ولا ريب فى أن أم المؤمنين ــ على سلامة فطرتها وشدة ذكائها وحسن تقديرها لرسول الله ــ

إنما أصابت الحقيقة أو أكثر الحقيقة فى هذا المعرض الشريف .

ولعلك واجد فى السيرة النبوية المطهرة ما يقوى وصف أم المؤمنين لرسول الله . وفى مقدمة هذه الأوصاف . صفة حمل أمه ـ عليها السلام ـ به ـ صلى الله عليه وسلم ـ . من أنها حملته به وهى غير مستعدة للفراش . وقد مضى العرف العربى الموثوق على أن المرأة إذا غشيها الرجل فى هذه الحال . فإنها إذا أَذْكَرَتْ جاء الولد مرضيا محمودا لا يرمى بالهبل . ولا يدعى عليه بالثكل . وهكذا كان حمل أمه به فى مبلغ ما نظن . ولكى يتضح هذا الذى أردناه لا نرى ندحة عن الإلمام بالقصة التى تروى زواج أبيه بأمه ـ رضى الله عنهما ـ . فذلك حيث ذكر ابن اسحق أن عبد المطلب بن هاشم جد رسول الله من أبيه كان قد نذر أن ينحر أحد أبنائه عند الكعبة إذا بلغوا عشرة . فلما توافى بنوه عشرة عرف أنهم سيمنعونه من أعدائه وشانئيه . ثم أخبربنيه بنذره ودعاهم إلى الوفاء لله به فأطاعوه . ثم سألوه كيف يصنعون ؟ فقال لهم : ليأخذ كل واحد منكم « قدحا » يكتب فيه اسمه ثم ائتونى . ففعلوا ما أمرهم أبوهم . ثم أتوه فدخل بهم على هبل فى جوف الكعبة وكان عند هبل قداح سبعة : كتب على قدح منها كلمة « نعم » وكتب على قدح آخر كلمة « لا » فإن خرج القدح الذى عليه « نعم » عملوا به . وإن خرج القدح الذى عليه « لا » لم يصنعوا ما كانوا قد أرادوه .

فلما جاء عبد المطلب . قال لصاحب القداح : اِضْرِب على بَنِىّ بقداحهم هذه . وأخبره بنذره فأعطى كل واحد منهم قدحه الذى فيه اسمه . وكان عبد الله والد سيدنا محمد رسول الله أصغر بنى أبيه .

فلما أخذ صاحب القداح ليضرب بها . قام عبد المطلب عند هبل يدعو الله ثم ضرب فخرج القدح على عبد الله ليأمرهم بذبحه وفاء بالنذر . فأخذه عبد المطلب بيده ثم أخذ الشفرة وهم بذبحه .

فقامت إليه قريش من أنديتها قائلين له : ماذا تريد يا عبد المطلب ؟ قال : أذبحه وفاء لنذرى . فقالت له قريش وبنوه معه : لا والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه ولئن فعلت هذا . لا يزال الرجل يأتى بابنه حتى يذبحه فما بقاء الناس على هذا . ثم قال له أحد بنى مخزوم : لا تذبحه حتى تعذر فيه فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه .

ثم قالت قريش له ومعها بنوه : اِنطلِقْ إلى الحجاز فإن به عرافة فَسَلْها فإن أمرتك بذبحه ذبحته وإن أمرتك بأمر لك وله فيه مخرج قبلته . فانطلقوا حتى جاءوها فسألوها وقص عليها

عبد المطلب خبره . وخبر ابنه وما أراد به ونذره الذى نذره . فقالت العرافة : ارجعوا عنى اليوم فرجعوا من عندها فلما خرجوا عنها قام عبد المطلب يدعو الله ثم غدوا عليها .

فقالت لهم : قد جاءنى الخبر ثم سألتهم كم الدية فيكم ؟ قالوا : عشر من الإبل قالت : فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشرا من الإبل . ثم اضربوا عليها وعليه القداح فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم . فإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضى ربكم . ونجا صاحبكم فخرجوا حتى قدموا مكة .

فلما أجمعوا على ذلك الأمر قام عبد المطلب يدعو الله ثم قربوا عبد الله وعشرا من الإبل . ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله فزادوا عشرا من الإبل فبلغت ثلاثين ثم ضربوا . فخرج القدح على عبد الله فزادوا عشرا فبلغت الإبل أربعين . ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله فزادوا عشرا فبلغت الإبل خمسين ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله فزادوا عشرا من الإبل . فبلغت الإبل ستين وما زالوا يزيدون عشرا حتى بلغت الإبل مائة بعير . وقام عبد المطلب يدعو ثم ضربوا فخرج القدح على الإبل .

فقالت قريش قد انتهى الأمر . ورضى ربك يا عبد المطلب بالفداء .

فقال عبد المطلب : لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات . فضرب على عبد الله وعلى الإبل فخرج القدح على الإبل . ثم أعاد الثانية فخرج القدح على الإبل . ثم أعاد الثالثة فخرج القدح على الإبل . فنحرت ثم تركت لا يصد عنها إنسان . ولا يمنع منها سبع . ثم انصرف عبد المطلب آخذا بيد ابنه عبد الله فمر به على رقية بنت نوفل أخت ورقة بن نوفل . وقد كانت من أجمل النساء وأعفهن . وكانت قرأت الكتب فرأت فى وجهه ما رغبها فيه فدعته إلى نفسها فأبى .

فقالت : تعالَ إلى ولك مثل الإبل التى نحرت عنك .

فقال عبد الله : « أنا مع أبي ولا أستطيع خلافه ولا مفارقته . فلما ألحت عليه جعل يقول :

أما الحرام فالْحِمَام دونه   والحل لا حل فأستبينه
فكيف بالأمر الذى تبغينه   يحمى الكريم عرضه ودينه

يقول الثقات من أهل العلم وكتاب السيرة الشريفة : وليس يبعد أن تكون هذه الحادثة قد بلغت عبد المطلب فحرضته على أن يصون ولده بالتزويج .

وقد روى السهيلى عن البرقى فى سبب تزويج عبد الله بآمنة بنت وهب : أن عبد المطلب كان يأتى اليمن ، وكان ينزل فيها على عظيم من عظمائها . فنزل عليه ذات يوم فإذا عنده رجل ممن يقرأ الكتب .

فقال له : ائذن لى أن أقيس منخرك فقال له : دونك فانظر ، فقال قارئ الكتب : أرى نبوة ومُلكا وأراهما فى المنافين : عبد مناف بن قصى ، وعبد مناف بن زهرة . فلما انصرف عبد المطلب انطلق بابنه عبد الله فزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف زواجا كزواج الإسلام كما فى الحديث الذى أخرجه البخارى ، وأبو داود عن أم المؤمنين عائشة ــ رضى الله عنها ــ .

وغير خفى أن هذا الزواج لم تتقدمه خطبة يطول أمدها أو يقصر . فهو ــ إلى المفاجأة ــ أدنى منه إلى التأهب والاستعداد .

وليس يغيب عنك معنى كريم لا يخفى على مثلك من أهل المروءة وأهل الدين وهو معنى مركوز فى فطرة الإنسان ، وتتعلق به مصلحة للفرد وللجماعه التى يعيش فيها . وهو أن الإنسان الكريم على نفسه إذا رأى امرأة فأعجبته وليس له فيها حق فإن أقرب شىء خطورا بباله أن يأتى أهله ففى ذلك راحة له من شغل القلب . وخلاص من حبائل الشيطان . ولست تشك فى أن عرض رقية بنت نوفل نفسها على عبد الله كان له فى نفسه أثر قوى ، إذ كان شابا من أبناء النعمة وأصحاب السيادة وكانت حنيفيته تأبى عليه أن يستجيب نداء خسيسا تنكره المروءة ويأباه ــ الدين . وآية ذلك إعراضه عن نداء رقيه بنت نوفل مستندا فى هذا الإعراض إلى أن المروءة تأبى عليه الحرام مهما تكن التى دعته إلى نفسها ذات منزلة رفيعه فى قومها . وذات جمال بارع يتهافت عليه أكثر الناس .

وبتمثلك هذه المعانى الشريفة ، لا تكاد ترى لعبد الله مندوحة عن اللياذ ــ بزوجته آمنه بنت وهب مهما تكن آمنة فارغة الذهن من مقتضيات الزواج . وعلى قدر ما كانت آمنة منصرفة الفكر عن تزوجها بعبد الله ، كان هو شديد الرغبة فيها لما كانت تستمتع به من حسب شريف

ونعمة سابغة ، فإذا هو على ذلك ــ مجبر أو كالمجبر على أن يذهب إليها ويقضى حاجته منها مهما تكن مشغولة بحاجات بيتها وغير مستعدة للفراش .

ولعلها ــ رضى الله عنها ــ قد حملت فى هذه الأثناء بسيدنا رسول الله فجاء ــ صلى الله عليه وسلم ــ كما وصفته أم المؤمنين عائشة ، مبرأ من كل غبر حيضة ، وفساد مرضعة ، وداء مغيل ، ثم إن أمه حملت به فى أغلب الظن عاقدة حبيكة ثوبها مشغولة بشئون بيتها .

وننتهز هذه السانحة لنذكر قومنا ، بأن مولده الشريف كان فى شهر (ربيع الأول) الموافق شهر (نيسان) (إبريل) لعشرين مضت منه على ما يذكر الإمام السهيلى فى « روضه » فيقول : إن مولده من الشهور الشمسية كان فى شهر (نيسان) لعشرين مضت منه ، وفصل الرو أفضل الفصول وأحسنها وأكثرها ضياء وأبهجها إشراقا وأجلبها لانشراح الصدور ، فالأرض فيه تأخذ زخرفها وتتجلى زينتها فى رفيف نباتها ونضارة أزهارها ، وكذلك كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ مصداقا لما رواه الثقات فى وصفه الشريف .

فقد جاء فى حديث أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : (ما رأيت أحسن من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كأن الشمس تجرى فى وجهه) ،

كذلك جاء الحديث الذى أخرجه الجامع الصغير عن أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : (كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا سُر استنار وجهه كأنه قطعة قمر) .

وكذلك جاء الحديث الذى خرجه الحافظ العراقى ، أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يقول فى دعائه « اللهم حسن خَلْقِى وخُلُقِى » .

وقد استجاب الله لنبيه دعاءه فكان كما قالت أم المؤمنين عائشة : «كان خلق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ القرآن » .

وقد وضح هذا المعنى حجة الإسلام فقال : إنما أدبه القرآن بمثل قوله تعالى :

« خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ » وقوله : « إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ » وقوله : « وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ » .

ومن هذا القبيل أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقبل على جلسائه بوجهه وحديثه حتى يظن كل واحدٍ منهم أنه المقصود وحده دون غيره على ما يقرر ذلك الحديث الذى أخرجه فى الشمائل الإمام الترمذى عن عمرو بن العاص ـ غفر الله له ـ قال : (كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقبل بوجهه وحديثه على أشر القوم ، يتألفهم بذلك ، فكان يقبل بوجهه وحديثه عَلَىَّ حتى ظننت أنى خير القوم ، فقلت يا رسول الله : أنا خير أم أبو بكر؟

قال : أبو بكر ، فقلت : أنا خير أم عمر؟

قال : عمر ، فقلت يا رسول الله : أنا خير أم عثمان ؟

قال : عثمان فلما سألت رسول الله فصدقنى ، وددت أنى لم أكن سألته) .

وكذلك جاء الحديث الذى رواه صاحب الشمائل عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : (خدمت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عشر سنين فما قال لى : « أف قط . وما قال لشيء صنعته لما صنعته ، ولا قال لشيء تركته لما تركته . ولقد كان أحسن الناس خلقا ، ولا مسست خزا ولا حريرا ولا شيئا ألين من كف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولا شممت مسكا قط ولا عطرا كان أطيب منه) .

ولقد كان ـ صلوات الله عليه ـ أحلم الناس . وأشجع الناس . وأعدل الناس . وكان أسخى الناس : لا يبيت عنده دينار ولا درهم ، إن فضل شيء ولم يجد من يعطيه وفجأه الليل ، لم يأو إلى فراشه حتى يتبرأ منه ويدفعه إلى من يحتاج إليه ثم لا يأخذ مما آتاه الله إلا ما يكفيه من التمر أو الشعير ، ويترك ما بقى فى سبيل الله وكان يساعد أهله فى البيت . أشد الناس حياء ، لا يثبت بصره فى وجه أحد . ويجيب دعوة العبد والحر ويقبل الهدية ولو جرعة لبن أو فخذ أرنب . ويكافئ عليها ويأكلها . ولا يأكل الصدقة ، ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين . يغضب لربه ولا يغضب لنفسه . وقد عرض عليه الانتصار على المشركين بالمشركين وقد كان فى قلة وحاجة إلى إنسان واحد يزيد فى عدد من معه ولكنه أبى قائلا : « أنا لا أنتصر بمشرك » .

وقد وجد من فضلاء أصحابه وخيارهم قتيلا بين اليهود فلم يحمله الغضب لصاحبه على أن يحيف أو يظلم فودى صاحبه ـ رضى الله عنه ـ بمائة ناقة .

وقد كان يعصب الحجر على بطنه : مرة من الجوع . ومرة يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد ، ولا يتورع عن مطعم حلال . وكان لا يأكل متكئا ولا على خوان ، وما شبع من خبز بر ثلاث ليال متواليات حتى لقى الله تعالى . إيثارًا على نفسه ، وكان يجيب الوليمة ويعود المرضى ويمشى وحده بلا حارس ، أشد الناس تواضعا . وأسكنهم فى غير كبر ، وأبلغهم فى غير تطويل ، وأحسنهم بشرا لا يهوله شيء من أمور الدنيا ويلبس ما وجد مرة شملة ومرة بردة حبرة يمانية ومرة جبة صوف . ويركب ما أمكنه مرة فرسا ومرة بعيرا ومرة بغلة شهباء ومرة حمارا ومرة يمشى راجلا ، يعود المرضى فى اقصى المدينة يحب الطيب ويكره الرائحة الرديئة ، ويجالس الفقراء . ويؤاكل المساكين ، وربما ارتفعت الأصوات عليه فيصبر ولا يرتفع على عبيده وإمائه فى مأكل ولا فى ملبس ، ولا يمضى له وقت فى غير عمل ، وما شتم ـ صلوات الله عليه ـ أحدا من

المؤمنين بشتيمة إلا جعل لها كفارة ورحمة . وما لعن امرأة قط ولا خادما ، وقد قيل له فى القتال لو لعنت أعداءك يا رسول الله فقال : (إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعانا وربما استبدل بلعن أعدائه الدعاء لهم . وما ضرب بيده أحدا قط إلا أن يضرب بها فى سبيل الله تعالى وما خير بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن فيه إثم أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس من ذلك ، وما كان يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه فى حاجته وكان إذا لقى أحدًا من أصحابه بدأه بالمصافحة ثم أخذ بيده فشابكه ثم شد قبضته عليها . وكان لا يجلس إليه أحد وهو يصلى إلا خفف صلاته فأقبل عليه فسأله عن حاجته فإذا فرغ من حاجته عاد إلى صلاته ، ولقد كان يدعو أصحابه بكناهم فيقول : يا أبا حفص يا أبا هريرة يا أخا العرب . وكان أبعد الناس غضبا وأقربهم رضا وكان إذا قام من مجلسه قال : « سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك » .

وذلك يعنى أن الله تعالى قد عصمه مما هو أدخل من ذلك فى باب الرذائل الاجتماعية التى تنكرها الفطرة السوية وتأباها الحنيفية التى هى ملة أبيه إبراهيم .

أما بعد فقد تحدثنا إليك ــ حفظك الله ــ عن مجالى شمائله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى القرآن الكريم . ثم فى السنة المطهرة ، ثم فى السيرة العطرة .

وأما الحديث عنه ــ صلوات الله عليه ــ فى لغة الأدباء والشعراء فقد وصفه حسان بن ثابت شاعر رسول الله ، وكذلك وصفه الشاعر كعب بن زهير فى قصيدته (بانت سعاد) وكذلك وصفه النابغة الجعدى ، حتى إذا أفضى أمر الأدب والشعر إلى الأدباء فى العصور المتأخرة وصفه الإمام البوصيرى بقصيدته (نهج البردة) وقصيدته (الهمزية) ثم وليه شوقى برائعته التى فاق بها جميع من سبقوه تحريا للحق وسموًا فى الخيال ، ودقة فى النظم وشرفا فى الأسلوب .

وإليك ــ حفظك الله ــ نماذج من شعر أولئك السادة الذين شرُفُوا بمديحه ــ صلى الله عليه وسلم ــ شرفا رفع منزلتهم فى الدنيا . وأظفرهم برضوان الله فى الآخرة إن شاء الله .

فذلك حيث قال حسان بن ثابت :

نبى عليه للنبوة خاتم ... من الله مشهود يلوح ويشهد
وضم الإله اسم الرسول إلى اسمه ... إذا قال فى الخمس المؤذنُ أشهد
وشق له من اسمه ما يجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد
نبى أتى من بعد يأس وفترة ... من الرسل والأوثانُ فى الأرض تعبد
فأمسى سراجا مستنيرا وهاديا ... يلوح كما لاح الصقيل المهند

تعاليت ربَّ الناس عن قول من دعا سواك إلها أنت أعلى وأمجد
لك الخلق والنعماء والأمر كله فـإيـاك نستهـدى وإيـاك نعبـد

ومما قال كعب بن زهير :

إن الرسول لنور يستضاء به وصارم من سيوف الله مسلول
فى عصبة من قريش قال قائلهم ببطن مكة لَمَّا أسلموا زولوا
زالوا فمازال أنكاس ولاكشف عند اللقاء ولا ميل[١] معازيل[٢]
لا يقع الطعن إلا فى نحورهم وماهم عن حياض الموت تهليل[٣]

وقد كان كعب بن زهير ينشد هذا الشعر بين يدى رسول الله فى مسجده الشريف فكان ـ صلوات الله عليه ـ ينظر إلى أصحابه ، معجبا لهم من حسن القول وجودة الشعر فلما فرغ كعب من الإنشاد كساه رسول الله بردته ، وقد اشتراها أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان من أولاد كعب بمال كثير ، وكان الخلفاء يلبسونها فى المواسم والأعياد ، وقد احتفظ بها الخلفاء العباسيون ثم صارت إلى خلفاء الدولة العلية فى تركيا وهى لا تزال بالقسطنطينية ، ومن هنا أطلقوا اسم البردة ـ على القصيدة الميمية التى وصف البوصيرى فيها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثنيا عليه بما هو أهله فى شرف منصبه وكرم شمائله مقتديا فى وصفه هذا بكعب بن زهير ـ رضى الله عنهم أجمعين ـ .

ذلك أن البوصيرى كان قد مرض فرأى النبى فى المنام يمسح وجهه ويلقى عليه بردته ، فنهض من نومه بارئا كانما نشط من عقال ، ثم نظم قصيدته الميمية مستصحبا فى نظمه إياها أمرين :
أَحدُهُما : أن قصيدة كعب . « لامية » وقصيدة البوصيرى « ميمية » والميم تجئ بعد اللام كما جاء البوصيرى بعد كعب .

وثانى الأمرين : أن قصيدة كعب كانت بعد نجاته من مقتل مهين ، وكانت قصيدة البوصيرى عقب إبلاله من مرض أليم .

ومما قاله النابغة الجعدى بين يدى رسول الله فقبله منه ودعا له :

خـلـيلى عُوجـا سـاعة وتهجرا ولوما على ما أحدث الدهر أو ذرا

---

(١) الكسالى : الذين لايحسنون الركوب ولا الفروسية .
(٢) الذين لا سلاح لهم . (٣) الجبن والنكوص .

تذكرت والذكرى تهيج لذى الهوى ... ومن عادة المحزون أن يتذكرا
حسبنا زمانا كل بيضاء شحمة ... ليالى لاقينا جزام وحميرا
فلما قرعنا النبع بالنبع بعضه ... ببعض أبت عيدانه أن تكسرا
سقيناهم كأسا سقونا بمثلها ... سوى أننا كنا على الموت أصبرا
ملكنا فلم نكشف قناعا لِحُرَّةٍ ... ولم نستلب إلا الحديد المسمرا
وجئنا رسول الله إذْ جاء بالهدى ... ويتلو كتابا كالمجرة نيرا
بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا ... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا
ولا خير فى حلم إذا لم تكن له ... بوادر تحمى صفوه أن يكدرا
ولا خير فى جهل إذا لم يكن له ... حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

فلما فرغ النابغة من إنشاده قال له ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا يفضض الله فاك » فعمر النابغة أكثر من مائة عام لم تنفض له سن .

وأما البوصيرى فقد كانت له فى مديح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قصيدتان : « نهج البردة » ، و « الهمزية » :

قال فى الهمزية :

كيف ترقى رقيك الأنبياء ... يا سماء ما طاولتها سماء
لم يساووك فى علاك وقد حا ... ل سنى منك دونهم وسناء
إنما مثلوا صفاتك للنا ... س كما مثل النجومَ الماء
أنت مصباح كل فضل فما تصـ ... ـدر إلا عن ضوئك الأضواء
لك ذات العلوم من عالم الغيـ ... ـب ومنها لآدم الأسماء
لم تزل فى ضمائر الكون تُخْتَا ... رلك الأمهات والآباء
ما مضت فترة من الرسل إلا ... بشرت قومها بك الأنبياء
تتباهى بك العصور وتسمو ... بك علياء بعدها علياء
وبدا للوجود منك كريم ... من كريم آباؤه كرماء
حبذا عقد سؤدد وفخار ... أنت فيه اليتيمة العصماء
ومحيا كالشمس منك مضئ ... أسفرت عنه ليلة غراء
ليلة المولد الذى كان للديـ ... ـن سرور بيومه وازدهاء

وتوالت بشرى الهواتف أن قد ولـد المصطفى وحق الهنـاء
وتداعى إيوان كسرى ولولا آية منك ما تداعى البناء
وغدا كل بيت نار وفيه كـربة من خمودها وبلاء
وعيون للفرس غارت فهل كا ن لـــنيرانهم بها إطـفـــاء

وليس يغيب عنك ـ أعزك الله ـ أن هذه الكلمات من الإمام البوصيرى تحتاج إلى وقفتين :

أولاهما : حول المبالغة الشديدة فى زعمه أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ له ذات العلوم فى عالم الغيب ، وهذه الصفة أشبه بأن تكون لله وحده لا شريك له .

وثانية الوقفتين : حول سقوط شرفات إيوان كسرى وخمود نار المجوس ومغيض بحيرة (ساوه) إذ كان مساق هذه العجائب الثلاث يوحى إلى السامع أن الشاعر إنما أراد المعانى الحقيقية لهذه الكلمات الثلاث فى حين أن الحمل على الحقيقة اللغوية قد يفتح باب يسوغ لقائل أن يقول : إن سقوط شرفات الإيوان كان نتيجة لهزة أرضية ، وفى هذه الحالة لا يظهر وجه الثناء على رسول الله ولا يستبين الربط بين هذا الشعر وبين ذكر المولد النبوى الشريف ، وإلا فأية علاقة بين مولده وسقوط شرفة فى قصر أو مغيض ماء فى بحيرة ، أو خمود نار فى معبد من معابد المجوسية ؟ . والأقرب إلى الحق ـ فيما يرى أهل العلم . أن تكون ـ هذه الظواهر الثلاث مرادا منها المجاز دون الحقيقة ، أن يكون هذا المجاز ماثلا فى انحسار طوفان المجوسية وتراجع سلطان الأكاسرة ـ بالمولد النبوى الكريم وما نشأ عنه ـ إلى المرتبة التى يلتقى فيها الراعى مع الرعية ، والسيد مع المسود فى ظلال وارفة من التفاضل بين الناس عن طريق الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والأعمال التى ينتفع بها مجتمع الإنسان ـ وهى فى الوقت نفسه ـ مقدور عليها لكل من يرتاد السبيل إليها على ما جاءت به الشريعة المحمدية بعد ذلك فى قول الله تعالى»

ما جاءت به الشريعة المحمدية بعد ذلك فى قول الله تعالى : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ » يعنى ـ جل ثناؤه ـ أن مقياس التفاضل بين الناس إنما هو تقوى الله وليس شرف الحسب ولا فضل النسب ، ولانقاء العروق وصفاء الألوان ، ولا الانتماء إلى ذوى السلطان من الأكاسرة والمرازبة ولا البراهمة ولا الفراعين .

ولكى يتراءى لك هذا المعنى على غاية الوضوح ، ينبغى أن تتمثل أمرين يستعين بهما البصير على إدراك مقدار النعمة التى أنعمها الله تعالى على عباده بمولد رسول الله وانبعاثه برسالة الإسلام

إلى العالمين مهما اختلف بهم الزمان والمكان :

وأحد الأمرين : ما يرويه ابن منظور المصرى عن العلامة ابن الأنبارى من أن الأكاسرة حكام فارس ، كانوا يضربون الدراهم ، وعليها صورة كسرى فمن أبصرها سجد لها ، وكذلك كان الملوك من الأكاسرة والقياصرة والفراعنة يضعون أنفسهم فى منازل الآلهة فالرعايا تسجد لهم ، كما حكى القرآن الكريم عن اخوة يوسف وأبويه وهو يومئذ حاكم مصر فى عهد الفراعنة حيث قال تعالى : « فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا » .. يعنى طأطئوا رءوسهم وانحنوا إجلالا له وتعظيما .

وثانى الأمرين : أن كل أمة تعتمد فى استبقاء مآثرها وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب وشكل من الأشكال .

فالعرب ـ فى جاهليتها ـ تحتال فى تخليدها لمآثرها أن تعتمد على الشعر الموزون والكلام

أما بعد فقد تحدثنا إليك ـ حفظك الله ـ عن مجالى شمائله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى القرآن

فالعرب ـ فى جاهليتها ـ تحتال فى تخليدها لمآثرها أن تعتمد على الشعر الموزون والكلام
المقفى ، غير ان العجم ذهبوا ـ إلى أن يعتمدوا فى تخليد مآثرهم على البنيان فبنوا الأبلق الفرد ، وبيضاء المدائن ، وبنوا القناطر والجسور والنواويس ، ولذلك لم تكن الفرس لتبيح شريف البنيان ولا شريف الأسماء إلا لأهل البيوتات ، كصنيعهم فى الحمامات والقباب الخضر والشرفات على حيطان الدور ، والعقود على الدهاليز وما أشبه ذلك .

وفى هذا دليل ـ لمن يؤثر المجاز ـ على أن سقوط شرفات إيوان كسرى كان إرهاصا لشروق الرسالة المحمدية التى تدعو الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ثم إلى المساواة بين الناس فى اقتضاء مالهم من حقوق وقضاء ما عليهم من تبعات ، فلكل مالك بيت أن يجعل لبيته قبة وأن يلحق به شرفة ، ولكل والد أن يضع لولده الاسم الذى يختاره سواء فى ذلك أرباب البيوتات وسواد الناس ، وهذا هو مستند المصير إلى التَّجوزِّ فى هذه الظواهر الثلاث : مغيض المياه ، وسقوط الشرفات ، وخمود النيران .

ويبقى بعد ذلك أن تنظر إلى أبيات البوصيرى فى ذكرى ـ المولد النبوى الشريف ـ فلا ترى

الثناء فيها على رسول الله ميسورا إدراكه إلا لفقيه بأسرار الخلق ، عليم بحقيقة الرسالة ، بصير بحر الكلام .

هذا ، وأما ما يتعلق بشوقى فى وصفه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فإليك ما قاله أمير الشعراء ، غير منكور قوله ، ولا مجحود فضله ، ولا مطموع فى اللحاق به ، سواء فى ذلك روائعه الثلاث : « الميمية » و« الهمزية » و« البائية » .

قال ــ رحمه الله ــ فى الميمية التى أسماها « نهج البردة » :

ريم على القاع بين البان والعلمِ ... أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم
لما رنا حدثتنى النفس قائلة ... يا ويح جنبك بالسهم المصيب رمى
جحدتها وكتمت السهم فى كبدى ... جرح الأحبة عندى غير ذى ألم
يا لائمى فى هواه والهوى قدَرٌ ... لو شَفَّك الوجد لم تَعذِل ولم تَلُمِ
لقد أنلتك أذنا غير واعية ... ورُبّ مُنْتَصِتٍ والقلب فى صَمَمِ
لزمت باب أمير الأنبياء ومن ... يمسك بمفتاح باب الله يغتنم
محمد صفوة البارى ورحمته ... وبغية الله من خلق ومن نَسَمِ
يارب هَبَّت شعوب من مَنِيَّتِها ... واستيقظت أمم من رَقْدَة العدم
رأى قضاؤك فينا رأى حكمته ... أَكْرِمْ بوجهك من قاض ومنتقم
فالطف لأجل رسول العالمين بنا ... ولا تزد قومه خسفا ولا تسم
يارب أحسنت بدء المسلمين به ... فتمم الفضل وامنح حسن مختتم

وقال ــ رحمه الله ــ فى همزيته :

و لد الهدى فالكائنات ضياء ... وفم الزمان تبسم وثناء
بك بشَّرَ الله السماء فَزُيِّنَتْ ... وتضوعت مسكا بك الغَبْراء
وبدا مُحَيَّاك الذى قسماته ... حق وغرته هدى وحياء
يامن له الأخلاق ما تهوى العلا ... منها وما يَتَعَشَّقُ الكبراء
لو لم تقم دينا لقامت وحدها ... دينا تضئ بنوره الأنْحَاءُ
زانتك فى الخلق العظيم شمائل ... يُغْرَى بهن ويُولَع الكرماء
فإذا سَخَوْت بلغت بالجود المدى ... وفعلت ما لا تفعل الأنواء
وإذا عفوت فقادر ومُقَدَّرٌ ... لا يستهين بعفوك الجهلاء

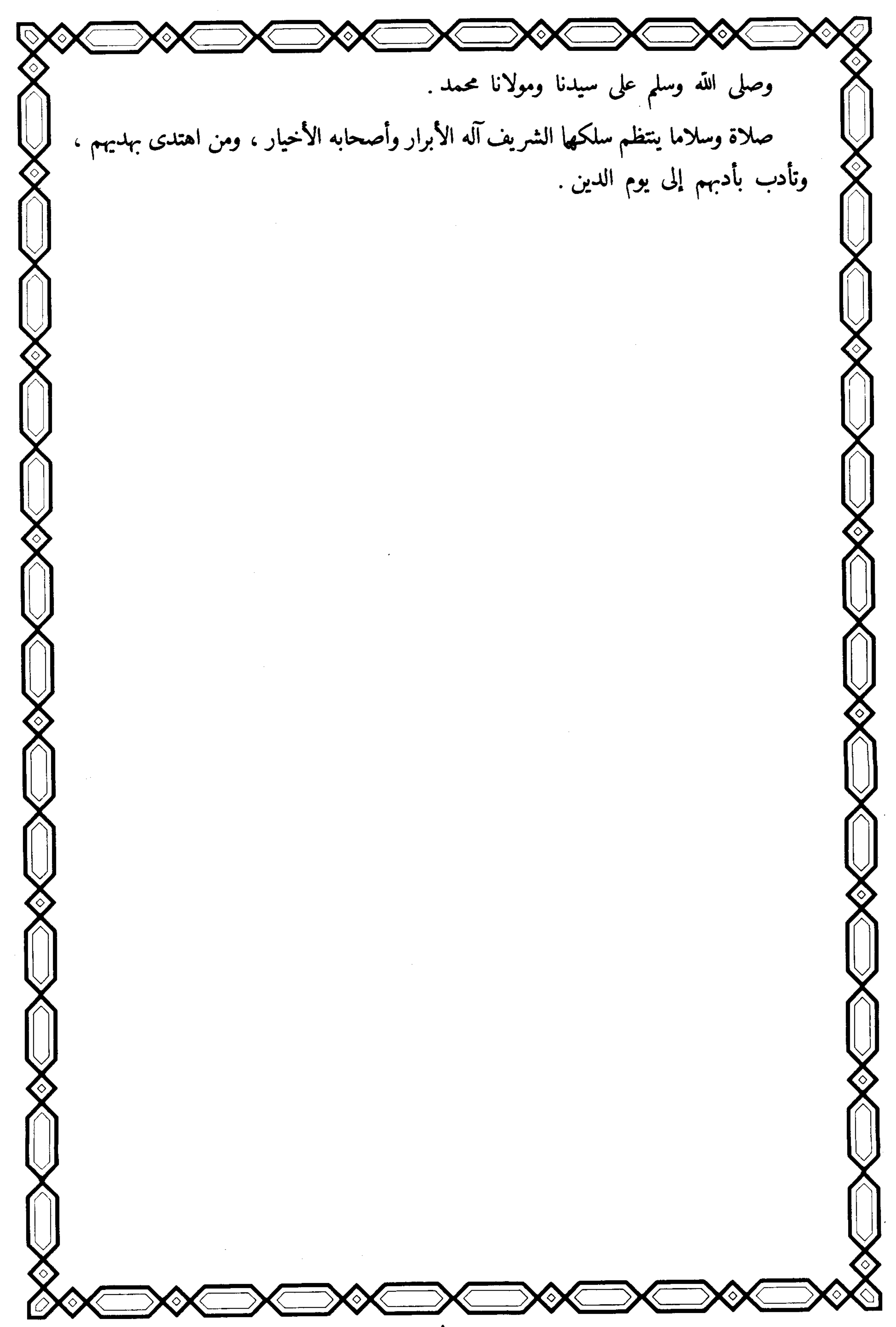
وإذا رحمت أنت أم أو أب ... هذان فى الدنيا هما الرحماء
واذا خطبت فللمنابر هزة ... تعرو الندى وللقلوب بكاء
بك يا بن عبد الله قامت سمحةٌ ... بالحق من مَلَلٍ الهدى غراء
اللهُ فوق الخلق فيها وحده ... والناسُ تحت لوائها أكفاء
والدين يسرٌ والخلافة بيعةٌ ... والأمر شورى والحقوق قضاء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى ... فالكل فى حق الحياة سواء
لى فى مديحك يا رسول عرائس ... تُيِّمْنَ فيك وشاقَهُنَّ جلاء
هن الحسان فإن قبلت تكرما ... فمهورهن شفاعة حسناء

وقال ـ رضى الله عنه ـ فى بائيته :

تجلى مولد الهادى وعمت ... بشائره البوادى والقصابا
وأسدت لِلْبَرِيَّةِ بنتُ وهب ... يدا بيضاء طوَّقت الرقابا
لقد وضعته وهاجا منيرا ... كما تلد السموات الشهابا
أبا الزهراء قد جاوزت قدرى ... بمدحك بَيْدَ أَنَّ لى انتسابا
فما عرف البلاغة ذو بيان ... إذا لم يتخذك له كتابا
مدحت المالكين فزدت قدرا ... فحين مدحتك اجْتَزْتُ السحابا
سألت الله فى أبناء دينى ... فإنْ تكن الوسيلةَ لى أجابا
وما للمسلمين سواك حِصْنٌ ... إذا ما الضر مسهم ونابا

أما بعد : فتلك هى شمائل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتلك هى أخلاقه الشريفة كما تضمنها القرآن العظيم ، والسنة النبوية المطهرة ، والسيرة الشريفة العطرة ، وكما صاغها الشعراء القدامى والمحدثون ، لم يركبوا فيها متن الغلو ولا استسلموا لنزوات الخيال وما كتبناه فى هذا الموطن الشريف ، إنما هو قل من كثر ، وقطرة من بحر .

وإنا لنرجو أن نكون قد ظفرنا بالغاية التى تحريناها من كتابة هذا البحث لا نبتغى من وراء ذلك جزاءً ولا شكورا ، فإن كنا قد أصبنا مارمينا إليه ، فالحمد الله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وان كان غير ذلك فأما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى .



وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد .

صلاة وسلاما ينتظم سلكها الشريف آله الأبرار وأصحابه الأخيار ، ومن اهتدى بهديهم ، وتأدب بأدبهم إلى يوم الدين .

